مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

# ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيّات الثّقافيّة لرواية أربعون عاما في انتظار إيزابيل –مقاربة تأويليّة–

**سعاد صايبة**
saiba.souad@cu-tipaza.dz
تاريخ الإرسال: 22/ 06/ 2023 ؛ تاريخ القبول: 18/ 10/ 2023

**Abstract:**

Postmodern literature is characterized by the nature of its own discourses, as it seeks to establish ideas, standards, and values, or refute them, which we see in the novel "Forty Years Waiting for Isabelle" by SaId Khatibi. Its reader senses its criticism of a particular period of time, through the discourses it contains, through the embodiment of a huge number of social, emotional, physical, political, religious and historical relations, all of which fall under the umbrella of the binary "me and the other" in a remarkable way, such as the relationship between a woman and a man, between a woman and a woman, Between the man and the man, between the Algerian and the French, between the center and the periphery, between the master and the vassal, between the eastern and the western, between the individual and the power.

The narrative structure worked on drawing the characters and building their features by employing different cultural references, relying more on the popular ones, such as slang and expressive forms, and representing the relationship of the ego with the other, and making a parallel between the image of the duality in popular culture and society in the past, the days of French colonialism and the Orientalist campaigns At the present time, in the early nineties. It focused remarkably on the situation of the Western other surrounded

المؤلف المراسل: سعاد صايبه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

by the Arab / Al-Busaadi ego, by revealing their darkest secret worlds, and displaying them naked swimming in dystopian spaces. What is the nature of these relationships? Did the novelist present it with a single vision, or with multiple visions?

**Keywords**: Culture; the Ego; the Other; Postmodern Narration; Postcolonial; Dystopia.

**الملخص:**

يتّسم الأدب المابعد حداثي على وجه الخصوص، بزخمه الخطابي، يسعى فيه الخطاب لأن يؤسّس للأفكار والمعايير والقيم أو ينقضها، وهو ما نلمسه في رواية﴿أربعون عاما في انتظار ايزابيل﴾ لسعيد خطيبي. قارئها يستشعر نقدها لمرحلة زمنيّة بعينها، من خلال ما تتضمّنه من خطابات، عبر تجسيد عدد هائل من العلاقات الاجتماعيّة والعاطفيّة والجسديّة والسّياسيّة والدّينيّة والتّاريخيّة، تنضوي جميعها تحت مظلّة ثنائيّة ﴿الأنا والآخر﴾ على نحو لافت، كالعلاقة التي بين المرأة والرّجل، بين المرأة والمرأة، بين الرّجل والرّجل، بين الجزائري والفرنسي، بين المركز والهامش، بين السيّد والتّابع، بين الشّرقي والغربي، بين الفرد والسّلطة.

اشتغلت البنية السّرديّة فيها على رسم الشّخصيّات، وبناء معالمها بتوظيف مرجعيات ثقافيّة مختلفة، متّكئة أكثر على الشّعبيّة منها، كالعامّيّة والأشكال التّعبيريّة، والتّمثيل لعلاقة الأنا بالآخر، والقيام بضرب من الموازاة بين صورة الثّنائيّة في الثّقافة الشّعبيّة والمجتمع في الزّمن الماضي، أيّام الاستعمار الفرنسي وحملات الاستشراق، وفي الزّمن الحاضر مطلع

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

التّسعينات. وتركّز بشكل لافت على وضعيّة الآخر الغربي محاطا بالأنا العربيّة/البوسعاديّة، من خلال الكشف عن عوالمهما السريّة الأكثر سوادا، وعرضها عارية تسبح في فضاءات ديستوبيّة. فما طبيعة هذه العلاقات؟ وهل قدّمها العمل الرّوائي برؤية واحدة أم برؤى متعدّدة؟

**الكلمات المفتاحية:** الثّقافة؛ الأنا؛ الآخر؛ سرد ما بعد حداثي، ما بعد الاستعمار؛ ديستوبيا.

**مقدمة:**

اللّوحة الفنيّة والمنحوتة والنّصّ الأدبيّ ضرب من الخلود لصاحبها، وكلّه سرد بالمعنى البارثي، والسّرد فكرة، والفكرة تتعدّد روافدها بين الذّات والواقع والمتخيّل والتّاريخ/الذّاكرة الفرديّة والجماعيّة، في بعدها-الفكرة- الفلسفي والدّيني والاجتماعي والنّفسي والتّاريخي والإنساني، والنّصّ بين أيدينا ﴿أربعون عاما في انتظار إيزابيل﴾ يبدو ذا خصوصيّة روائيّة، إذ يتجاوز الطّابوهات من دين وجنس وسياسة، إضافة إلى التّاريخ، بطرق المسكوت عنه في حشد من الشّخصيّات، يستعطف القارئ ويحاول إقناعه برؤيته، فخرج العمل في شكل لا يعترف بالحدود بين الأجناس ولا بين الرّسمي والهامشي، واللّغة الفصيحة والشّعبيّة، وامتدّت الهجنة لتطال الشّخصيّات الممثّلة للآنا وللآخر. يتلبّس رواية التّاريخ باستحضار شخصيّات ووقائع تاريخيّة، ورواية الجغرافيا بكتابة الرّحلة والرّحالة، ومغامراتهم، ورواية السّيرة وكتابة التّراث برصد الثّقافي الشّعبي، بتنوّع الأزمنة والأمكنة

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

والمراوحة بينها، مع الحضور القويّ للأيديولوجيا التي تقوم عليها فنّيات النّص. ولعلّ موقعه كإعلامي قد انعكس على لغته، فجاءت بسيطة، تفتقر في كثير من المواضع إلى الشّعريّة والأدبيّة، لكنّه يستعيض عنها بشعريّة وقوة اللّغة العاميّة والتّراثيّة، ذات الدّلالة المكثّفة، وهي الأقرب إلى الذّات الجزائريّة بملامسة هويّتها. كما يمكن رصد توظيف المؤلّف لبعض الرّموز الثّقافيّة والشّعبيّة، وعناصر من التّراث البوسعادي والصّحراوي، كالعاميّة والمثل الشّعبي والحكاية الشّعبيّة، والمسكوكة اللّفظيّة، ونحوها. فلغة النّصّ عاميّة مفصّحة أو فصيحة مهجّنة، تولّد عنها نسيج لغويّ له وقعه من نفس القارئ، عمدت من خلالها البنية السّرديّة إلى إعادة تشكيل هويّة وصورة الأنا العربي والجزائري وبخاصّة البوسعادي وعلاقته بأشكال الآخر، وهويّة وصورة الآخر سواء المختلف انتماء هوويّا وجغرافيّا وثقافيّا، وهو الغربيّ، الممثّل في المستشرق والمستعمِر، أو المختلف جنسا/ بيولوجيّا، وإعادة تشكيلها على خلاف ما ترسّخت في المخيال الجزائري العربي/ البوسعادي، بالكشف عن الوجه الأخر والمغيّب للثّقافة في كواليسها ودهاليزها المظلمة بعرضها مأساة تستدعي التعاطف معها؛ لأنّها ممارسات لا تحتمل الحكم القيمي حينا، ومرفوضة؛ يشنّعها ويبشّعها حينا آخر.

ينظر النّقد المعاصر للنّصّ أنّه بنية ثقافيّة تنطوي على تفكير الفرد والجماعة التي ينتمي إليها , والأمة بأكملها، عبر شحناته الدّلاليّة، لذا لا مفرّ لنّص عن الحضور الكلّي أو الجزئي للثّقافة التي ينتمي إليها من

جهة، والثّقافة التي يتموقع فيها المؤلّف من جهة ثانية. وقد باتت اليوم الثّقافة ثقافات، وتمدّد المفهوم ليسع الرّاقي والدّونيّ مع ظهور الدّراسات الثّقافيّة، والنّقد الثّقافي منتصف القرن العشرين. تعدّ ثنائيّة «الأنا والآخر» بأشكالها المختلفة أكثر المجالات التي تتناولها البحوث الأكاديميّة. والنّصّ الرّوائي «أربعون عاما في انتظار إيزابيل» لسعيد خطيبي يثير موضوع الآخريّة على نحو لافت، بتناول نماذج لها؛ بثنائيّة الأنا والآخر ممثّلة بالمرأة والرّجل، وبالجزائري والفرنسي، وبالمركز والهامش، وهو إعادة صياغة لمفهوم الآخر في الجزائر المستقلّة مطلع التّسعينات، والجزائر أيّام الاستعمار الفرنسي وحملات الاستشراق، وفي منطقة بوسعادة تحديدا، والقيام بضرب من الموازاة بين صورة الأنا والآخر في الثّقافة الشّعبيّة في الزّمن الماضي وفي الزّمن الحاضر، وتقديم نماذج متعدّدة لها. والتّركيز على وضعيّة الآخر الغربي محاطا بالأنا العربيّة الجزائريّة/ البوسعاديّة التي يَسمع المتلقّي صوتها في السّرّ والعلن منذ العتبة الأولى للنّص باستحضار اسم علم غربي «إيزابيل»، وهو الآخر الذي يعيش الغربيتين، غربة جغرافيّة وغربة نفسيّة، والحال نفسه مع الذّوات الجزائريّة، فقد عمد إلى تصويرها من الدّاخل دون الالتفات كثيرا إلى ظاهرها، لأنّه ما بعد حداثي، وذو بعد ديستوبي، ما جعل ذات الآخر تظهر في عناصرها النّفسيّة والبيولوجيّة لا تختلف عن ذات الأنا؛ تشاركها العوالم الخاصّة نفسها. وهو ما يقتضي طرح إشكاليّة: ما طبيعة علاقة الأنا بالآخر؟ وهل هي علاقة مبتكرة أم مجترّة؟ هل سعى البناء

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

السّردي إلى بناء العلاقة بين الأنا والآخر وترميمها ومدّ جسور الحوار بينها، أم إلى نقضها وتشويهها؟ وهل كانت رؤية واحدة أم رؤى متعدّدة؟ وما تجلّيّات عنف الهدم أو لين الوصل بين الأنا والآخر؟

**الأنا والآخر في رواية ﴿أربعون عاما في انتظار إيزابيل﴾:**

تعتزم هذه السّطور البحثيّة رصد تجليّات الأنا والآخر وطبيعة العلاقة بينهما من خلال المرجعيّات الثّقافيّة للنّص، بمقاربة تأويليّة. بداية؛ وقفة محاورة بين المفاهيم المابعديّة في الأدب والنّقد، ثمّ وقفة لابدّ منها عند بعض المفاهيم المحوريّة، وبالأخصّ مفهوم ﴿الأنا والآخر﴾ و﴿الثّقافة﴾، ليتسنّى لنا التّحوّل إلى صُلب الموضوع، برصد العلاقة بين الأنا والآخر المختلف والمتعدّد في نصّ الرّواية؛ من خلال اللّغة العاميّة وتجليّات أخرى للثّقافة الشّعبيّة أقلّ حضورا، وخارجها، وما يدخل في دائرة الإيديولوجيا والقناعات الفكريّة والاجتماعيّة -وهو مردّ عدم التناسب بين أحجام مباحث الدّراسة- موزّعا على أربعة مباحث؛ الأوّل: الروّاية وبنيتها السّرديّة حتّى يكون الحديث عن علاقة الأنا بالآخر أوضح، بتوضّح معالم الشّخصيّات، وزمن الأحداث وأمكنتها باعتبارها فضاءات تساهم في تشكيل الدّلالة، والثّاني: الأنا والآخر من خلال الثّقافة الشّعبيّة، والثّالث: علاقة الآنا بالآخر خارج الثّقافة الشّعبيّة، أي ما كان ثقافة دخيلة أو أيديولوجيا، والرّابع: الذّات المستدعاة بين التّاريخ والمتخيّل، ببحث كيفيّة حضورها، ليصل البحث إلى خاتمة تجمل ما خلصت إليها القراءة.

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

## مفاهيم محوريّة:

لم يلتفت النّقد إلى حضور الثّقافة في النّصوص إلّا بعد ظهور الدّراسات الثّقافيّة، والاحتفاء بالمهمل والمنبوذ والشّاذّ واللّاعقلاني... وتحوّل مفهوم الثّقافة من الإيجابي إلى السّلبي، ذلك المفهوم الفضفاض الذي يجمع بين الشّعبوي والنّخبوي، الرسمي والهامشي، الرّاقي والحقير في مرحلة النّقد ما بعد حداثي، الذي فكّك المركزيّات، ونسف اليقينيّات، ومسح الحدود، ونقض مبدأ الثّنائيّات الضدّيّة، التي من بينها ثنائيّة الأنا والآخر، التي خرجت من رحم الثّقافة الغربيّة، إرتبطت بالنّقد الثّقافي وبالخطاب الاستعماري وما بعد الاستعماري، والنّقد النّسوي والاستشراق، وانتعشت المفاهيم المتعلّقة بها مع الفلاسفة الفرنسيّين. وقد دأب النّقد في مراحل سابقة له أن يكون تابعا للأدب، لكنّ ما هو واقع في نقد ما بعد الحداثة خلاف ذلك، بعد تكاثر المؤلّفات ورواج الدّراسات الأكاديميّة في النّقد الثّقافي، واتّساع دائرة التّجريب على مستوى الأشكال والمضامين والأساليب، تهيّأ للسّواد الأعظم من الكتّاب أنّ أجود النّصوص تلك التي تتمثّل موضوعات النّقد الثّقافي، وتتجاوز المعايير بالتّأسيس لمعايير جديدة، حتّى تكون مدوّنة أهلًا للبحث والدّراسة، وبغضّ النّظر عن صحّة أو خطأ الفكرة، نجد فيها قدرا من الصّواب بالنّظر إليها من زاوية مختلفة، لأنّ «المابعد حداثي يقوم مقام الفيلسوف فنّانا وكاتبا، فمبدئيّا.. لا يستجيبان لمعايير سابقة عنهما.. هذه المعايير و هذه الأجناس هي ما يرومه هذا النص أو هذا العمل. فالمؤلف

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

والفنّان يعملان بتعالٍ على المعايير، ولتأسيس معايير لما سيتمّ إنجازه.. وهو مردّ أنّها تصل متأخّرة جدا إلى مؤلّفها، أو بالمعنى نفسه، هم يباشرون تطبيق معاييرهم في وقت مبكّر جدّا﴾ (Lyotard 1988, 33)، فالأدب في كلّ الأزمنة نقد للواقع على نحو ما، والأديب المابعد حداثي على وجه الخصوص يقوم مقام الفيلسوف الذي يؤسّس للأفكار والمعايير أو دحضها وفق ليوتار. أمّا النّاقد فهو الآخر لم يعد يكتف بالوصف، وعاد ليتبنّى عنصر القيمة، ويبدي أفكاره وآراءه ويتّخذ مواقفه ولا يتحرّج من تحيّزاته، بالتّالي سقط قناع العلميّة والموضوعيّة؛ ما يجعل النّاقد والأديب سواء، الأديب ينقد -سلبا أو إيجابا- الواقع بما يتّفق مع رؤاه وخلفيّاته الثّقافيّة والمعرفيّة، ويتمثّله فنيّا، والنّاقد ينقد النّص على النّحو ذاته بلغة علميّة، فكلاهما يسعى إلى فكرة ما، والفكرة تعني النّظر إلى أمر/ ظاهرة ما من زاوية محدّدة، دون الارتكاز على حقيقة، والنّظريّة من النّظر، فـما لا يمكن التّنظير له نسرده، وهو ما يؤمن به أمبرتو إيكو، وأجاب به، حين سئل عن روايته ﴿اسم الوردة﴾ التي كتبها في سنّ الخمسين.

وغدت الدّراسات النّقديّة الأكاديميّة والتّأليفيّة المعاصرة تحتفي بموضوعات الآخريّة/ الغيريّة، فالأنا يعرّف من خلال الآخر، والآخر "the Other" في أبسط صوره هو مثيل أو نقيض الذّات، أو الأنا.. تصنيف إستبعادي يقتضي إقصاء كلّ ما لا ينتمي إلى نظام فرد أو جماعة أو مؤسّسة، سواء كان النّظام قيما اجتماعيّة أو أخلاقيّة أو سياسيّة أو

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

ثقافيّة.. سمة الآخر المائزة هي تجسيده ليس فقط كل ما هو غريب ﴿غير مألوف﴾ أو ما هو ﴿غيري﴾ بالنّسبة للذّات أو الثّقافة ككل، بل أيضا كلّ ما يهدّد الوحدة والصّفاء﴾ (البازغي 2002، 21)، ما يجعل من مفهوم الآخر يتأسّس على وعي الذّات بذاتها، وتحديدها لعناصر هويّتها، وكينونتها، وكلّ ما اختلف عنها أو شكّل خطرا على شروط هويّتها وكينونتها، في كليّتها أو جزئيّتها هو ﴿آخر﴾.

فلكلّ من الأنا والآخر عناصر هوويّة ثقافيّة تميّزه، وبحصر الحديث عن الثّقافة الشّعبيّة نجد أهمّ مقوّاتها اللّهجة العاميّة: Dialect، وهي وعاء كلّ الفنون التّعبيريّة الشّعبيّة، تعرّف نقديّا بأنّها ﴿لفظ أو نحو أو نطق يستخدمه قوم متميّزون جغرافيّا أو اجتماعيّا.. من الوسائل شديدة الأهميّة في تكنيك التّشخيص الدرامي أو القصصي.. يعمد الروائي.. إلى محاكاة طريقة النّطق واختيار الكلمات وإيقاع الحديث الخاصّة بلهجة معيّنة في رسم شخصيّاته.. وكلّ كتّاب الحوار المبرزين بلا استثناء يقومون بالتّمييز بين الشّخصيّات مستخدمين اللّهجات المحليّة﴾ (فتحي 1986، 303)، فهو السّمة الفارقة بين الشّخصيّات، إذ لكلّ شخصيّة في العمل استعمالها الخاص للكلام، توجّهه هويّتها الجغرافيّة والاجتماعيّة، أي ثقافتها، وبالتّالي تكشف عن مستواها المعرفي، وانتماءها الدّيني والسّياسي والمكاني، وحجم وعيها. وعليه يمكن القول أنّ الثّقافة الشّعبيّة من أكثر تجليّاتها في النّصّ الأدبي إذا ما وظّفت فيه هو العاميّة، وما كان من طبيعتها كالحكاية والمثلُ والمسكوكة اللّفظيّة، وحين تتفاعل فيما بينها

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

تتحوّل إلى تقنيّة سرديّة، تكشف عن البعد الهووي لمستعملها بإيهام أقوى بمصداقيّتها، سواء كان ﴿الأنا﴾ بخصوصيّاتها الهوويّة والثّقافيّة والأيديولوجيّة أو ﴿الآخر﴾ المختلف عنها والمقابل لها، وهذا الكشف يفضي إلى تبيان طبيعة العلاقة بينهما. أمّا مصطلح ديستوبيا فهو مقابل ليوتوبيا، ولا يمكن فهمه إلّا بفهم مقابله يوتوبيا ﴾ وهولفظ معرّب، يتألّف من لفظتين يونانيّتن؛ topos: المكان، وou: ليس، أي؛ ما ليس في مكان، وهو الخيالي أو المثالي، تستعمل في السّياسة والاجتماع والاقتصاد﴾ (صليبا 1987، ص24). ويقصد به عموما كلّ ما هو جيّد وحالم ومثالي، وبالمقابل يصبح مفهوم ديستوبيا نفي لكلّ ذلك، أي كلّ ما هو فاسد وخبيث ومتشائم وغير سويّ.

**الرّواية وبنيتها السّرديّة:**

رواية ﴿أربعون عاما في انتظار إيزابيل﴾ تنتمي إلى رواية مابعد الاستعمار، ومابعد الحداثة، فقد صدرت سنة 2016م. وتتّسم بتعدّد الأبعاد؛ سياسي، ديني، تاريخي، ثقافي، نفسي، سوسيولوجي.. كما تتمثّل بعض ملامح التّجريب، كالهجنة الأجناسيّة، من خلال مرجعيّاتها الثّقافيّة، منها ما كان أصيلا من التّراث الشّعبي وتاريخ منطقة بوسعادة- مسقط رأسه-، ومنها ماهو دخيل عليها، تتمثّل رؤيته الخاصّة، فـ﴿الكاتب حين يكتب، لا يتعامل مباشرة مع الواقع، بل مع ما يرتسم في ذهنه، أو في مخيّلته، من صور تخصّ هذا الواقع، أو تمثّله وتعنيه. وهذه الصّور هي صور مفهوميّة.. لأنّها صور مرتسمة، من موقع رؤية الكاتب

لها، في إطار ليس هو الإطار الواقع ذاته، وكذلك ضمن علاقات أخرى ليست هي تماما، حتّى ولو توخّى الكاتب غير ذلك﴾ (يمنى 1999، 27)، وكلّ كتابة إبداعيّة تتناول موضوعا، والموضوع يختصّ بالذّات، والذّات ذوات بتعدّد الشّخصيّات مقوّما أساسيّا من مقوّمات السّرد الرّوائي تتحرّك في مكان وزمان معيّنين، وتدور فيهما أحداث معيّنة، يسردها السّارد بأسلوب معيّن؛ يقترب كثيرا من أسلوب كتابات الهامش في ﴿أربعون عاما في انتظار إيزابيل﴾، لغة ووصفا وحوارا، حتى بدا النّصّ كأنّه سرد للتّاريخ الثّقافي للمنطقة، بما وظّفه من زخم تراثي وتاريخي، وأعاد صياغته من عنوان وشخصيّات ومضامين.

ـــ العنوان: الاشتغال على ثنائيّة ﴿الأنا والآخر﴾ بارز من العتبة الأولى؛ العنوان الذي يستحضر التاريخ التّراثي والأدبي وملامح أخرى ضاربة في القِدم، موزّعا على شقّين؛ الأوّل: ﴿أربعون عاما﴾، عبارة كثيفة الدّلالة وعميقة البعد، لعلّ أقربها إلى الذّهن أربعون عاما من التّيه والشّتات لبني إسرائيل قبل ولوج أرض الميعاد، تحيل على أربعين يوما لطقس تحنيط الموتى في الحضارة الفرعونيّة، ليتجهّزوا للحياة في العالم الآخر حيث لا تغرب الشّمس، وأربعين يوما لتخليق الجنين في رحم الأم، وبثّ الرّوح فيه، وأربعين يوما لرفع الحداد على الميّت في الثّقافة الشّعبيّة المحليّة/ الجزائريّة. والشّقّ الثّاني: اسم العلم ﴿إيزابيل﴾، اسم أنثوي غربي، عنوان يدفع بأفق التّوقّع لدى القارئ بأن يتخيّلها جملة لرجل أو امرأة يترقّب أو تترقّب عودة امرأة لها من نفسه/ ها القرب

والحظوة؛ قد تكون ابنة أو حبيبة أو قريبة ذات مكانة خاصّة، وحين يباشر المتن، يخيب توقّعه، ويدرك أنّ إيزابيل لم تكن غير المستشرقة الأوروبيّة إيزابيل إيبرهارت، التي كان مخطوطها بحوزة السّارد؛ إنتظر أربعين عاما ليسلّمه لابن صديقه المتوفّى؛ سعيد خطّيبي. عنوان فيه من التّضليل والمراوغة الفنّيين، ما يوسّع المسافة الجماليّة، ويباعد بينه وبين أفق انتظار القارئ. وكلمة ﴿إنتظار﴾ التي تصل الشّقّ الأوّل بالثّاني توحي بكلّ الدّلالات؛ المنتظَر آتٍ أو سيأتي قريبا، أو أنّه لن يأتي، فالانتظار لا يقتضي بالضّرورة مجيئ المنتظَر، لكنّ أقرب التّأويلات إلى الذّهن هو مجيئه، أي أنّه حيّ، لكنّ إيزابيل ماتت قبل انفتاح السّرد بثمانية وثمانين (88) عاما؛ توفّيت سنة 1904م، وحاضر السّرد خلال سنة 1992م، فكيف ينتظر السّارد ميّتا منذ أربعين عاما؟! ولماذا؟ ربّما لأنّها من أسلافه، أو لأنّه يحملها بداخله، وذكراها لا تفارقه لسبب ما، غير أنّ القارئ يكتشف لاحقا أنّ إيزابيل كانت تعيش مع السّارد كلّ لحظة من حياته من خلال مخطوطها، ﴿حصل عليه من موظّف سابق في البلديّة، قايضه إيّاه بمروحيّة كهربائيّة﴾ (خطيبي 2016، 14). هذا ما يبدو ظاهريّا، لكن بتفكيك بنى النّص الدّلاليّة نجد أربعون عاما هي أربعون عاما من الصّمت والسّكوت على ما يجب أن يسمع، عن حقيقة الأمور؛ قتل ﴿إيزابيل﴾ وقد آن الأوان لإظهار الحقيقة وقولها بصوت جهوري؛ صوت االسّارد، متحدّثا عن المخطوط وعن المؤلّف سعيد خطيبي، المذكور حرفيّا في الرّواية ﴿أتمّ قصّة الأربعين عاما التي جمعتنا، قبل أن

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

يتوقّف قلبي عن النّبض، أو يتّصل بي سعيد بن لخضر خطيبي كما وعدني، وأسلّم له مخطوط إيزابيل إيبرهارت، وأقطع بعدها مباشر علاقتي بالأدب﴾ (خطيبي 2016، 157)، وهو من يتولّى الدّفاع عن ذات إيزابيل، وبعثها إلى الحياة من جديد، بعد أن قتلتها الأنا البوسعاديّة/ الجزائريّة، وهو تصريح واضح من السّارد أنّ الأربعين عاما لم تكن في انتظار مجيئ إيزابيل، وإنّما سيرة شخصّين توزّعت بينهما من الصّفات ما اجتمع في إيزابيل، فالسّارد الحاج جوزيف رينشار، الجندي الفرنسيّ الذي وقف في صفّ الثّورة الجزائريّة، وتحوّل عن المسيحيّة إلى الإسلام متحوّلا بذلك عن أصله وثقافته، ومتحوّلا أيضا عن طبيعته باختيار شريك حياة صديقه سليمان بلهوم، البوسعادي العربي، الذي قاطع أباه، وتبرأت منه قبيلته لشذوذه عن أعرافها. واختيار شخصيّة إيزابيل أو سي محمود يجسّد موضوع الآخريّة بامتياز- فهي وفق بنائها السّردي شخصيّة تجمع بين المركز والهامش، بين الرّجل والمرأة، بين الغربي والعربي، المتديّن والماجن، العاقل والمجنون.

ـ مقوّمات السّرد في ﴿أربعون عاما في انتظار إيزابيل: كلّ سرد يقوم على شخصّيات تتحرّك في زمان ومكان محدّدين، ووصف وحوار يحبك بها السّارد أحداثا تدور حول موضوع معيّن.

ــ الشّخصيّات: يأتي الحديث عن الشّخصيّة على اعتبار أنّه لا يمكن الحديث عن الأنا والآخر إلّا بوجود ذوات متآلفة وأخرى متنافرة، والذّات تجسّدها الشّخصيّة، وشخصيّات العمل متباينة الحضور، جسّدت

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

ذلك الإنسان المأزوم، المغلوب على أمره، منهزم يصارع العالم، ويعيش عزلته واغترابه ويتجرّع مرارة واقعه منزويا على الهامش. تشارك البناء الرّوائي عدد من الشّخصيّات، منها السّارد الحاج جوزيف رينشار، والرّحالة إيزابيل إيبرهارت، والرّسّام المستشرق إيتيان دينيه، وسليمان بلهوم، والرّاقصة خضرة بنت أولاد نايل، وسعدية، وحبيبة، وعلجيّة، وسعاد، ومليكة، وعبد الكريم طيطي، والشّيخ محاد، وعبد الهادي، وجونينياف، وأوليفيي، وزوينة، والميلود، والشّيخ المنوّر، ولالّة فاطمة... وظّف العمل مقاطع من سير شخصيّات حقيقيّة مطعّمة بالخيال، يضعها بالموازاة مع سرد السّيرة الذّاتيّة المتخيّلة لجوزيف رينشار على سبيل المقارنة والمشابهة. شخصيّة تجمع بين الشّرق والغرب، بين الجزائري والفرنسي، بين الماضي والحاضر، بين الإسلام والمسيحيّة، تروي سيرة من الخيبات والانكسارات للشّخصيّتين. عمل سيريّ تخيّليّ يكشف عن جوانب من حياة الرحّالة والكاتبة إيزابيل إيبرهارت، التي عاشت في ماض لم يعشه الحاج جوزيف وصديقة سليمان، شخصيّة غائبة يستحضرها من خلال مخطوطها، بالمقارنة بينه وبينها. وأكثر الشّخصيّات عملا في السّرد:

*إيزابيل إيبرهارت: شخصيّة تاريخيّة حقيقيّة، محلّ جدل بين دارسي التّاريخ السّياسي، استدعاها المؤلّف منذ أوّل عتبة. رحّالة مستشرقة وكاتبة عاشت حياة التّرحال في الجزائر واستقرّت بها، تمرّدت على العادات والتّقاليد، تحوّلت عن المسيحيّة إلى الإسلام، تزوّجت من

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

سليمان أهنّي رغم ازدواجيّتها، تراوح بين سي محمود وايزابيل،عبرت الأماكن بقدر ما عبرت الرّجال، الكثير من الرّجال والعشّاق، يكشف السّارد عن الجزء المخفي من حياتها الخاصّة، وفق ما وجده في مخطوطها، وينتصر لها. لم تحظ بحبّ من عاشت بينهم رغم تضامنها معهم، وظلّت أجنبيّة في دائرة الرّيبة والشّك ﴿الرّوميّة الستّوتة جاسوسة!..بنت الحرام، سرقت منّا الرّجال.. لكنّهن لم يسألن أنفسهنّ عن ماذا يمكنها أن تتجسّس في صحراء يتّسع فيها الرّمل والصّمت والخلاء والبؤس والقنوط﴾ (خطيبي 2016، 131).

*جوزيف رينشار: الحاج جوزيف؛ الرّاوي/ السّارد بتوظيف الضّمير أنا، شخصيّة محوريّة، ذاتيّ القصّة؛ صاحب السّيرة الذّاتيّة التّخيّليّة لتطابق الرّاوي مع الشّخصيّة، فرنسيّ شارك في الحرب العالميّة وساند الثّورة الجزائريّة، اختار العيش في بوسعادة مع صديقه سليمان، يمارس فنّ الرّسم، تحوّل عن المسيحيّة إلى الإسلام. يتقن العاميّة الشّعبيّة والفصحى، محيط بالثّقافة الشّعبيّة، ويحفظ حزبا من القرآن. يصف نفسه بـ﴿شيخ في السّبعين.. لقد ضعف بصري إلى (-5)، ولم تعد تحتمل ركبتاي جسدي المتثاقل، وسقطت أسناني﴾ (خطيبي 2016، 17)، انشغل طيلة أربعين عاما بقراءة مخطوط إيزابيل، وتحويل كلّ فصل منه إلى لوحة، منذ بلغ الثّلاثين، وحين بلغ السّبعين قرّر العودة إلى فرنسا في ظلّ سوء الوضع الأمني.

*سليمان بلهوم: رفيق السّارد: شخصيّة ملازمة للشّخصيّة المحوريّة، ينقل السّارد كلامها القليل باقتضاب شديد؛ ﴿توفي الحاج محاد، الدّفينة بعد

الظهر، أخبرني سليمان﴾ (خطيبي 2016، 97)، و﴿الّي خلق ما يضيّع يقول لي سليمان﴾ (خطيبي 2016، 106)، يقتات على منحة فرنسيّة هزيلة، قاطع والده، لم يقبل دعوة جوزيف لمرافقته إلى فرنسا في شبابه، وقبلها بعد ثلاثة عقود. لا يظهر منه التّفاعل مع ما حوله.

* إيتيان دينيه: رسّام مستشرق فرنسيّ حقيقيّ. عاش في بوسعادة، شوّه بلوحاته وروايته ﴿خضرة راقصة اولاد نائل﴾ صورة نساء أولاد نايل؛ ﴿قصّة خضرة الحقيقيّة، التي حرّفها.. ومرّغها في وحل شهواته.. نزع منها صفاتها الإنسانيّة وجعل منها عاهرة وفقط﴾ (خطيبي 2016، 50).

* خضرة بنت ولاد نايل: شخصيّة حقيقيّة، من التّراث الشّعبي، ضحيّة والدتها قبل دينيه، يجتهد السّارد في إنصافها؛ ﴿سوف أكتب انتقاما من إيتيان، وإنصافا لبنات أولاد نائل﴾ (خطيبي 2016، 46). ولجت عالم العهر وهي طفله، من مظّفة أواني، إلى بائعة جسد، قبل أن تحترف الرّقص. فرّت مع أحد عشّاقها، وتزوّجته، ثمّ عادت إلى سيرتها الأولى؛ لتهلك بطعنة سكّين في الرّابعة والثّلاثين من عمرها﴾ (خطيبي 2016، 50).

*الشّاب بن علي، إبّاضي متمرد على طقوس عشيرته، عريد تزوج بخضرة الرّاقصة، فرّت معه إلى مسقط رأسه، ثمّ هجرته، وعادت إلى ﴿قهوة الزهو/ البار﴾، لكنّه ظلّ يترجّاها لتعود إليه، دون جدوى.

* عبد الكريم طيطي: شاب سلفيّ متسلّط وشره ومتعصّب، يبدو منه التّقى وحقيقته الانحراف والشّذوذ. بطّال يعمل بقد الحاجة إلى المال.

شخصيّات إشكاليّة، منفصلة عن واقعها، راكدة، تواجه الخيبة تلو الأخرى، مارست دور البطل المشوّه، الظّال، فاقد الهويّة والانتماء؛ جوزيف رينشار مسيحي مسلم وفرنسي جزائري، وإيزابيل رجل وامرأة، ومتديّنة عاهرة، وسليمان قاطع أهله وتبرّأ منه قومه، وخضرةالرّاقصة الشّهيرة والعاهرة المنبوذة، ودينيه المبدع الشّرّير، وعبد الكريم طيطي المتديّن العنيف والشّاذ، زهرة/ صافيّة كتو المتحرّرة المنتحرة، وعلجيّة الخائنة المجني عليها، ولالا فاطمة شيخة الزّاويّة الشّادّة.. شخصيّات تتقدّم في الزّمن ولا تتغيّر، نمطيّة لا ابتكار في ملامحها، مضطربة وغير سويّة، تمنح العمل بعدا مأساويّا ديستوبيّا، يجمعها مجتمع متداعي القيم، منهار المبادئ؛ لا تعرف نساءه غير عهر يسنده صمت رجاله. إلى جانب طهرانيّة الأسماء في حسيّتها، بينما رمز للمدنّس والمحظور في تّخييلها (انظر التّعليق رقم 1)، فضلا عن كونها بلا وظائف مدنيّة ولا مسؤوليّات أسريّة أو مجتمعيّة.

ـ الزّمن: فضاءات من الحاضر تتقاطع مع أخرى من الماضي، كلّ بشخصيّاته. يسرد النّصّ أحداث أربعين عاما، تبدأ في ﴿شتاء 1951﴾ (خطيبي 2016، 14) بارتدادات إلى الماضي، واستشرافات في المستقبل. تتمازج فيها الحقيقة التّاريخيّة مع التّخييل التّاريخي، بمسح لتاريخ الجزائر بعد الحرب العالمية الثّانية، وصولا إلى مطلع العشريّة السّوداء شتاء 1992م.

ـ المكان: فضاء بتعاضده مع الفضاء الزّمني يمنح الحدث بعده الدّلالي، بما تثيره من الرّصيد الثّقافي والتّاريخي لمنطقة بوسعادة؛ المدينة المنسيّة المهملة، تتّجه من السّيئ إلى الأسوأ. ينعتها السّارد بكلّ أوصاف السّوء والشّرّ والنّقص، عبرها الكثير من المستشرقين، فضاء يراوح بين الانغلاق في بيت الحاج جوزيف وصديقه سليمان ﴿الغرفة الإسمنتيّة الضّيّقة، مهترئة الجدران، مشقّقة الزّوايا الأربع، المطليّة بالأصفر الباهت، المكتظّة بأغراض قديمة وملابس بالية، ومقتنيات أربعة عقود من الخردوات والقطع الفنيّة، التي أكتب وأرسم فيها﴾ (خطيبي 2016، 12)، والانفتاح خارج البيت، كالسّوق والمقهى ودكان أدوات الرّسم والمسجد والزّاوية والكنيسة والمخبزة والمقبرة والشّارع، إلّا في الستّ صفحات الأخيرة، حيث تغيّر إلى بيت السّارد المتهالك في فرنسا، وهي فضاءات تتحرّك فيها الشّخصيّات الحاضرة. أمّا الشّخصيّات التّاريخيّة؛ فتحضر بفضاءاتها، كالأمكنة التي عاشت فيها إيزابيل ودينيه وخضرة. والفضاء العام الذي يجمع كلّ الفضاءات الصّحراء رمزا للمغامرة والتّحدّي والتّرحال والإقصاء والموت.

ـ الحوار: تولّى السّارد/ جوزيف عمليّة السّرد، إلّا نادرا ما ينقل جملا قصيرة لصديقه سليمان، وغالبا ما تكون في قوالب شعبيّة مسكوكة، إلى جانب جمل موجزة لشخصيات أخرى. وهو عودة لحضور الرّاوي الكلاسيكي والدّكتاتوري.

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

ـ الوصف: تقنيّة الأكثر حضورا، بوصف الفضاءات المكانيّة والزّمانيّة، ومساحات النّفس من مشاعر وأحاسيس ومواقف وخيالات على حساب المشهديّة، حتّى أنّ النّص بأكمله يكاد يكون نصّا مونولوجيّا.

ـ الحبكة: يكسر السّرد الخطيّة الزّمنيّة باستمرار؛ يتقدّم في الحاضر بخطوة ويقفز إلى الماضي بخطوة، موازيا بين حياتي الحاج جوزيف وإيزابيل، ثمّ يقفز على الحاضر والماضي نحو المستقبل بتخيّل ما يمكن أن يكون من أمره أو يتوقّعه، ومن أمر إيزابيل لو أنّها عاشت لزمنه، ومصير البقعة التي يعيش/ يدفن فيها. جاءت الأحداث متسلسلة تسلسلا لامنطقيّا، وتخييل لم يرتق إلى مستوى تبريرها.

ـ الموضوع: عرض يشبه المونولوج بصوت مسموع، يصف حقبة زمنيّة حرجة من تاريخ الجزائر؛ بداية نهر الدّم ومرحلة انعطاف عنيف، بدأت بأحداث 1988م، التي مهّدت للوضع، الذي إنفجر مطلع 1992م، وقراءة المنظومة القيميّة التي حكمت المجتمع ومستوى الانحطاط الذي بلغه، قدّمها المؤلّف في شكل شهادات سيريّة لشخصيّة إستشراقيّة متخيّلة، تمثّل الآخر المابعد إستعماري.

**الأنا والأخر من خلال الثّقافة الشّعبيّة:**

أو الموروث الثّقافي، هي الوسط المعنوي الذي تنشأ فيه الذّات، وتمتح منه هوويّتها، ويختلف تحديد عناصرها من أمّة إلى أخرى، وبين القديم والمعاصر، إذ كانت قديما مهملة إلى زمن قريب، ثمّ التفت إليها النّقد على نحو متسارع نظرا لأهميّة الدّور الذي تؤدّيه في الشّعوب

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023

ص.ص 82 - 151.

العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.

والمجتمعات، بقوّة تأثيرها، ولعلّ أهمّ مكوّناتها ما كان منطوقا، مختزنا في الذّاكرة الجمعيّة، ومتوارثا. تعرّف على أنّها ﴿مجموع العناصر التي تشكّل ثقافة المجتمع المسيطرة في أيّ بلد أو منطقة جغرافيّة محدودة، والتي تنتشر باستخدام طرق إعلام شعبيّة، وتنتج هذه الثّقافة من التّفاعلات اليوميّة بين عناصر المجتمع إضافة لحاجاته ورغباته التي تشكّل الحياة اليوميّة للقطاع الغالب من المجتمع، وهي مفصولة عن السّلطتين السّياسيّة والدّينيّة﴾ (عاطف 2015، 16)، دون ضرورة التّعارض. وبذلك تعدّ العاميّة أهمّ عناصرها، وما يدخل في دائرة الأدب الشّعبي، الذي بات يتبوّأ مكانة تكاد تسمو على مكانة الأدب النّخبوي. ذلك أنّ المعلومة الثّقافية دون غيرها يمكنها الوصول إلى أعداد هائلة من العقول بسهولة، دون الحاجة إلى مستوى تعليميّ، تتسلّل إلى اللّاوعي، وتترسّب فيه، لتسهم في توجيه تفكير الفرد وبالتّالي سلوكاته، ومن خلال هذه السّلوكات والتّفاعلات تتحدّد علاقة الأنا بغيرها.

ـ الأنا والآخر من خلال اللّغة العاميّة: في النّصّ عبارات وتسميات عاميّة كثيرة، ولا يمكن حصرها جميعا، لذا سنقتصر منها على ما يتعلّق بصورنة الأنا والآخر، منها:

*الأنا العربي والآخر الغربي: تأتي صفة/إسم الرّومي مرادفا لـ الآخر في الثّقافة الشّعبيّة وتعريفا مكثّفا له، فسماع هذه اللّفظة في مكان عام تحيل مباشرة على شخص غير عربيّ، وغير منتم للمكان أصالة، وغير مسلم، وبعض ما يقوم به من سلوكات عاديّة في ثقافته مرفوض تماما في

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023

ص.ص 82 - 151.

العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.

ثقافة العربيّ وإن أسلم واستعرب، مثل: ﴿إيتيان دينيه أو *الرّومي* كما يسمّيه كبار السّن، فرغم أنّه عاش هنا أكثر من أربعة عشر عاما، تعلّم العربية وحفظ القرآن وخالط النّاس ووقف إلى جانبهم في محنهم وفي مآتمهم، وأطعمهم بعضا من رزقه، فقد ظلّوا ينظرون إليه *غريبا* أجنبيّا، بعين الرّيبة، يتوجّسون منه، مثلي أنا تماما﴾ (خطيبي 2016، 12)، يطابق السّارد ذاته مع ذات االرّسّام إيتيان دينيه من حيث نظرة الأنا العربيّة لهما، من منطلق أنّهما واحد هوويّا وثقافيّا وجغرافيّا، وحتّى مهنيّا، كما أورد السّارد اللّفظة ذاتها وهو يتحدّث عن عبد الكريم طيطي، المتديّن العنيف، ﴿يراني أجنبيّا ﴿روميّا﴾وليس مسلما كامل الإسلام﴾ (خطيبي 2016، 42)، أمّا إيزابيل إيبرهارت فينعتها سليمان لجوزيف رينشار: ﴿هذه الرّوميّة ركبها جن، قال لي﴾ (خطيبي 2016، 42)، وقالت عنها نسوة بوسعادة ﴿الرّوميّة الستّوتة جاسوسة!..بنت الحرام، سرقت منّا الرّجال..!﴾ (خطيبي 2016، 131). فليست فقط غير مأمونة الجانب من أهل المنطقة، وأنّ سلوكها غير سوي وغير منطقي، بل تتعدّاه إلى تهديد نسائها، بإغراء أزواجهن وسرقتهم منهنّ. فالرّوميّـ(ة)، النّعت الذي يقوم مقام الاسم في تعامل الأنا العربي مع الآخر الغربي، رغم قضائه ردحا من عمره بينهم، وتديّنه بدينهم، والوقوف إلى جانبهم، غير أنّ ذلك لا يكفي لتقبل به الأنا واحدا منها، تطبيقا للقول الشّعبي السّائر ﴿ البرّاني برّا﴾. فالآخر الغربيّ الممثّل في الثّلاثة –الحاج جوزيف وإيزابيل ودينيه–حاضر بقوّة، قضى زمنا محاطا بالأنا متماه معها ظاهريّا،

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

واقع البناء السّردي للنّص يكشف عن خلاف ذلك، فهو الرّومي المختلف والغريب وغير مؤتمن الجانب، وغير السّوي في عين الأنا مهما أظهر خلاف ذلك، وهو إقصاء له من الأنا لأنّه يشكّل تهديدا على هويّتها ودينها وعربيّتها، حدّ إنكار فضله، والاعتقاد فيه بالنّقيض، حتّى أنّ أحد أبناء الجيران كتب بالطّلاء الأحمر على جدار بيت جوزيف ﴿جوزيف الحركي الخائن﴾ (خطيبي 2016، 144). كشف السّرد من الصّفحة الثّانية عن طبيعة علاقة الأنا بالآخر، الأنا النّاكرة للجميل والرّافضة له، والآخر المظلوم رغم ما بذله من جهد للتّأقلم مع طبيعة الحياة في المنطقة بجميع أبعادها، وهو المعنى الذي تجسّده البنية السّطحيّة للنّص، غير أنّ تأويل الخطاب في بنيته العميقة يكشف عن النّقيض تماما.

يشهد الآخر عبر شخص جوزيف رينشار أن الأنا تبدي اهتماما وحرصا على الإحاطة به عناية واهتماما ﴿وسّع بالك، هكذا، كان يخاطبني سليمان﴾ (خطيبي 2016، 13). تظهر الأنا شديدة الحرص أن يبقى الآخر مرتاح البال، هادئا، وإذا ما بالغ جوزيف في القلق والانزعاج يقول له سليمان ﴿ربي يهديك﴾ (خطيبي 2016، 15)، وحين كان جوزيف يقصد الحيّ الذي يختصّ ببيع الحشيش لاقتناء حاجته منه يلحّ سليمان على مرافقته: ﴿ما نخليكش وحدك يا العميرة، ما كانش الأمان﴾ (خطيبي 2016، 85)، تزل الأنا نفسها منزلة الحارس الشّخصي للآخر، والحامي له، وهي الأدرى بشعاب مدينتها، تخشى عليه الأذى من بني جلدتها، وتخشى عليه أكثر ممّا يخشى هو على نفسه ﴿حبّس

الشراب يا العميرة. راك غير تهلك في صحتك.. ــ أنا عسكري والعسكري ما يرجعش للوراء. قلت له﴾ (خطيبي 2016، 23)، لكنّ الآخر لا يستجيب للنّصيحة والتّذكير إستعلاءً وإن على حساب صحّته لصالح فوقيّته. وليس ضروريّا أن يكون الحادث الذي ينزعج منه الآخر ويقلقه آنيّا وحقيقيّا؛ هذا قبل أنّ يتسلّل إلى بدن الآخر الضّعف والكِبَر، ولا فرق بين وضع القوّة ووضع الضّعف، فكلّما يتذكّر جوزيف أنّه نسي الكثير من الأغراض المهمّة التي كان يجب أن يحملها معه إلى فرنسا يقوم سليمان بما عليه من واجب بقوله: ﴿ما تقلّقش روحك يا العميرة .. سنعود لمّا تستقرّ الأمور﴾ (خطيبي 2016، 151)، يطمئنه، ويجتهد في إبعاد القلق عنه. وتتجاوز الأنا وظيفة الحماية إلى الخدمة، ولا ترى عيبا في ذلك؛ قال سليمان لجوزيف حين عرض عليه الاستعانة بشخص آخر ينظّف البيت ويطبخ لهم: ﴿الدّار يقوموا بها مواليها﴾ (خطيبي 2016، 16). ويذكر جوزيف أنّ سليمان خرج في الصّباح الباكر ليشتري الحليب وأخبره ﴿وهو يغلي ماء لتحضير فطور الصّباح، وأنا أتثاءب.. ونصف مغمض العينين: الحاج محاد توفى، الدفينة بعد الظّهر﴾ (خطيبي 2016، 97)، ففضلا عن كون الأنا تنزل نفسها منزلة الخادم الذي يستيقظ قبل سيّده، ويخرج إلى السّوق أو الدّكان لاقتناء حاجيات ليعدّ له فطور الصّباح، بينما الآخر/السّيّد يغطّ في نوم وينعم بدفء فراشه، للأنا دور إضافيّ آخر وهو أن يكون أذنه التي يتلقّف بها أخبار المدينة، لا فرق بينه وبين جريدة الصّباح بين يدي الآخر وهو يرتشف قهوته؛ فالأنا في خدمة

الآخر حسيّا ومعنويّا وماديّا. ومشهد يلخّص العلاقة بينهما حين قال سليمان لجوزيف الذي ذبح ديكا أحمر وأسود دون أن يستقبل القبلة وطبخه ووضعه على مائدة الإفطار في رمضان : ﴿هذي جيفة.. حرام.. ما ناكلش!﴾، وجاءه الرّد في ثاني أيّام عيد الفطر، حين ذبح دجاجة بيضاء وطبختها لهما الجارة: ﴿كُل وحدك.. السّم!﴾ (خطيبي 2016، 129)، لم ينسها له، رغم أنّه قدّم حجّة رفضه الأكل، أمّا جوزيف رينشار فلا حجّة له، وظلّت الحادثة تعمل في نفسه طيلة شهر رمضان، ولم يفوّت فرصة الانتقام لكرامته أوّل ما أتيحت له، ولم ير أنّه مطالب بتقديم حجّة الرّفض. فعلاقة سليمان بصديقه جوزيف ليست متكافئة؛ علاقة مركز بهامش، وتابع بمتبوع، ومهيمِن مهيمَن عليه، حتّى أنّ جوزيف ذبح ديكا أحمر وأسود ﴿عروبي﴾ أصيل، وسليمان ذبح دجاجة بيضاء غير أصيلة، من بنات التّفريخ الاصطناعي، تتغذّى على السّموم الكميائيّة، لا خير فيها مقارنة بالدّيك الذي يتغذّى على الحشائش والدّيدان وخشاش الأرض. ومنه علاقة الأنا بآخرٍ متعالٍ يؤمن بفوقيّته وأحقيّته بأن يكون في مقام السّيد الذي لا يحاسبه أحد، وإذا أخطأ العبد/ الأنا يردّ له الكيل بمكيالين للأنا.

* الأنا في عين الآخر: بخلاف عناية الأنا بالآخر الذي له موقف نقيض كما يظهره السّارد مع الكثير من نماذج الأنا في حالتها الجماعيّة، مثل: ــ ﴿هذه طيّارة ولا موتو.. سمعت صوت القابض وهو يخرج رأسه من النّافذة الأماميّة، يصرخ عاليا في وجوه المسافرين: واحد وراء واحد يا

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023

ص.ص 82 - 151.

العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.

جماعة ما تعملوش مشاكل.. ما إن توقّفت الحافلة حتّى التفّ جميعهم حول باب الصّعود، هجموا نسوة ورجال وأطفال، على الحافلة كما لو كانوا قططا جائعة تهجم على شريحة شحم، وتداخلت أصواتهم فيما بينها: أسمع بالعقل.. بالاك.. بالشويّة.. رد بالك المراة راهي كبيرة.. يدي.. زيد هيه.. ما تطبّعش.. وسط تلك الزّحمة وجدت نفسي منجذبا.. وصعدت بفضل تدافع المتدافعين.. قضيت ثلاثين كيلومترا واقفا.. أحمل قفّة في يدي اليمنى.. وبيدي اليسرى أعدّل شاشي المتدلّي﴾ (خطيبي 2016، 65)، تصوير للأنا العربيّة فوضويّة وهمجيّة غير متحضّرة، يتدافعون كما القطط الجائعة على الطّعام، والكلّ يعلم ما يحدث في تلك الحالات من معارك بين القطط، لأنّها لا تقبل أن تتشارك الطّعام مع غيرها، لاسيّما قطعة شحم، كما أنّهم أنانيّون وقساة بلا رحمة، لم يرأفوا لحال عجوز متهالك قضى ثلاثين كيلومترا واقفا، بل حاملا قفّته بيد ويعدّل شاشه لكثرة حفر الطّريق وشدّة الزّحام، الآخر/ السّارد جوزيف رينشار المحاط بالأنا البوسعاديّة، يعاني الإقصاء والإهمال واللّامبالاة لحاله ولكبر سنّه، وإن كان متماهيا معهم يلبس لباسهم: شاش، قميص صوف، صدرية وسروال عرب، وهو في الواقع ذاهب ومعه قوارير زيت هديّة ربّما كانت في مقام الرّشوة لشيخ الزّاوية الرّيحانيّة؛ علّه يرأف لحاله بعد الاطّلاع على خبر إمكانيّة هجرته بعد أيّام. وفي مشهد جواب الحاج علي نائب رئيس المجلس البلدي كلّما طالبه بتسديد الدّين الذي عليه: ﴿ اللّه غالب يا الحاج جوزيف، والله مادخلت الشّهريّة﴾ (خطيبي 2016،

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023

العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.

ص.ص 82 - 151.

84)، يسمّيه الحاج، وقد زار بيت اللّه عدّة مرّات، لكن بالمقابل يظهره كذّابا ومراوغا وطمّاعا وأكّالا لمال غيره، يعتقد أنّ الآخر/ الحاج جوزيف يمكن استغباؤه بسهولة، والأفضع أنّه يحلف اليمين كاذبا وهو يعلم، فكيف تجتمع المواظبة على زيارة بيت اللّه مع اليمين الكاذبة وأكل مال الغير؟!، تلك هي الأنا العربيّة المنافقة والطّماعة، ونظرة دونيّة أخرى لها من قبل الآخر/ جوزيف، من خلال حديثه مع الرّسّام عبد الهادي الذي بعد أن جرّب حياة البؤس في بلده لم يعد يفكّر إلّا في العودة إلى بلاد الرّوس بعد أن تخلّى عن زوجته الرّوسيّة وابنته فيها: ﴿-أنا نموت في بلاد الرّوس يا الحاج. ما نبقاش عايش في بلاد الجراد. - الجراد أنقذ يوما ما آباءك من المجاعة. قلت ساخرا﴾ (خطيبي 2016، 117)، وهو إقرار من الأنا العربيّة بقبولها التّبعيّة الثّقافيّة للآخر الغربي، مقابل المتعة الجسديّة، ما جعل السّارد/ الآخر يسخر من البوسعادي الذي وصف قومه وعشيرته بالجراد مجازا عن البؤس والرّكود وحياة الملل وأنّ حياته لم تعد تختلف عن حياة حشرة، إذ ردّ عليه مذكّرا إياه بأن للجراد فضلا عظيما على أبائه حقيقة ، ولولاه لهلكوا جميعا من الجوع، وقد يحيلنا لفظ الجراد حقيقة من السّارد أنّ آباء عبد الهادي من فرط أكل الجراد وهم يواجهون موجة المجاعة التي سبّبها للمحاصيل أورثهم صفاته، من فوضى وهمجيّة وبربريّة وبؤس وإحلال الفساد حيثما حلّوا. وكلّها معان تصبّ في تحقير الأنا وتبشيعها وتقزيمها، والإعلان صراحة بدونيّتها. ومجدّدا تأتي صراحة صورة الأنا البوسعاديّة في عين جوزيف/ الآخر بـ﴿أولاد

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

الكلاب، يعتقدون أنني من بقايا الاستعمار﴾ (خطيبي 2016، 132)، فوصف أهل المنطقة بأولاد الكلاب، وصف عامّي سوقيّ، فظيع المعنى عمّا يكنّه الآخر للأنا من حقد وكراهية واحتقار، فأولاد الكلب تعني لقطاء، والنّسب المجهول، والذّلّة، والدّونيّة، والتّبعيّة، وفقدان الشّرف، فلكلّ كلب صاحب يطعمه ويؤويه، ويدرّبه ويروّضه، وبالمقابل عليه بالطّاعة والرّضوخ لأوامر السّيد وحراسته وحمايته. فهاهو الآخر يتكرّم بفضلة خبزه على الأنا، يصفها بأوصاف الإفريقي، والمتشرّد المتلعثم ﴿الطفل الأسمر، أشعث الشّعر، ذو الملابس الرّثة، يطلب خبزا يابسا لغنم والده، وهو يتلعثم في كلامه: ﴿عمي الحاج .. اعط.. يني.. خب.. ز.. يا.. بس.. ربي.. يح.. فظك﴾ (خطيبي 2016، 17)، فهذا الآخر يملك الطّعام الذي يتكرّم به على الأنا، ويصفه بالأشعث والرّث اللّباس، أي أنّه يعاني فقرا مدقعا مقيما، وإضافة إلى ذلك لا يحسن الكلام؛ فهو لا يملك اللّغة ولا حقّ له في الكلام، والأسوأ من العوز وفقدان اللّغة هو الطّفل الأسمر الإفريقي؛ العبد الصّغير الإفريقيّ الجائع يتوسّل السّيّد ويدعو له بالحفظ مقابل الخبز اليابس، فالآخر/السّيد الغربيّ الأبيض يملك الطّعام والأنا/العبد الإفريقيّ الأسمر يعصره الجوع. والأخر/جوزيف لا يملك الطّعام فقط وإنّما المال لشراء أي شيء، وهو المتكفّل بمساعدة سليمان على العيش ﴿الدّليل أنّه مش قادر يعيش بالمصروف تاع راس الشّهر﴾ (خطيبي 2016، 22)؛ المال قرين السّلطة والهيمنة، فمن يملك المال يحقّ له امتلاك ما سواه بما فيها المعرفة، فسليمان

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

لا يملك من المواهب والثّقافة والمعرفة واللّغة ما يملكه سليمان ﴿فهو لا يفهم سوى القليل من الفرنسيّة، وكذا الحد الأدنى من العربيّة الفصحى﴾ (خطيبي 2016، 14). شخصيّة جوزيف متفوّقة بما تملكه على كلّ الشّخصيّات الممثّلة للأنا، بخلاف الشّخصيّات الممثّلة للآخر –دينيه وإيزابيل– فهي موازية له في كلّ شي. يتمادى الآخر في إظهار فوقيّته ﴿سليمان لا خيار له سوى الارتكان إلى صفّي وقبول القرار، والخضوع لمنطق الأسياد الجدد، سيجد نفس لا محالة في الشّارع، فالفرنكات القليلة التي يتلقّاها منحة تقاعد، عن سنوات الخدمة في فرنسا، لا تكفي حتى لمصروف نصف شهر، ولا معيل له غيري﴾ (خطيبي 2016، 13)، يمتلك الآخر الطّعام والمال وحقّ الكلام وحقّ القرار والبيت الذي يقيمان فيه، فهو يؤوي سليمان في البيت الذي يملكه على أرض الأنا، ويأويها فيه ويعيلها، وسليمان أهل الأرض، ولا يملك خيار البقاء فيها، فمنحة تقاعده فرنسيّة هزيلة، والبيت لجوزيف، يؤويه ويطعمه، وهو من دونه حتما سيهلك بعد أن يؤمّمه الأسياد الجدد، وما عليه إلّا الخضوع للقرار الذي اتّخذه جوزيف بالعودة إلى أرض وطنه، ليظلّ تحت رحمته؛ علاقة مستعمِر بمستعمَر. استعمار دون عنف بامتلاك السّلطة والمال والمعرفة واللّغة. وهاهي الأنا في شكلها الجمعي بتنكّرها وجحودها لفضل الآخر عليها ستجني ثمار فعلها بقوله على لسان الآنا نفسها –سليمان– معلية من شأن الآخر بالمثل الشّعبي: ﴿كلّ من يضرط يشمّ ريحه﴾ (خطيبي 2016، 132)، بمعنى المثل العربي ﴿يداك أوكتا وفوك نفخ﴾، فلا يلومون

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023

ص.ص 82 - 151.

العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.

إلّا أنفسهم بعد رحيل جوزيف، وسيندمون على غياب من كان يغدق عليهم بحبّه وماله. ومن فرط صغر حجم الأنا في عين الآخر، وقناعته بأحقيّته في كلّ ما هو لها أنّه أصبح يتحسّس من أي كلام صادر عنها، ويشعر أنّه يقصده، كقول عبد الكريم طيطي: «المدينة كلاوها البرانيّة» (خطيبي 2016، 132)، فهذه الأنا منغلقة على نفسها ولا تقبل بالآخر بينها، وتراه غريبا برّانيّا، وأنّه استولى على المدينة بغير وجه حق، وأولادها أولى بها. وحتّى بعد أن ينتقل الآخر إلى موطنه الأصل تظلّ الأنا همجيّة ولا تقيم وزنا للعشرة والملح الذي كان بينها وبين الآخر؛ فعبر الهاتف يبلغ جوزيف خبر من قبل زوينة الوصيّة على البيت في غياب صاحبيه: «دخلوا للدّار من النّافذة، وسرقوا كلّ شيء.. ما خلّاو والو!» (خطيبي 2016، 152)، وهذه صورة الأنا في صيغتها الجماعيّة مرّة أخرى، بربريّة وغير مؤتمنة وهمجيّة، تمارس اللّصوصيّة؛ تقطع اليد التي مدّت لتطعمها؛ حين سطت على ممتلكات الآخر في أوّل فرصة لها، وانتهكت حرمة بيت ظلّ فيه صاحباه أربعين عاما، ولم تراعي حقّ الجيرة طيلة تلك المدّة.

* المواطن والسّلطة: وهي ثنائيّة ضدّية أخرى من أشكال الأنا والآخر، يعجّ بها النّصّ، تتجلّى رمزيّة، كما في مقاطعة سليمان لوالده حيّا وميّتا، وانفصاله عن بيت العائلة، والعيش في بيت الفرنسيّ جوزيف. والأب رمز الأصل والسّلطة والهيمنة، والتّخلّص من الأبويّة إحالة على التّحرّر في التّفكير التّنويري، وتتجلّى صراحة في: «صاحب المقهى الخمسيني،

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

الأصلع البدين، المعوج الفك السفلي.. قال بصوت هادئ: راهم يقولوا أن الحالة ما تعجبش يا الحاج.. أخبرني عن نيته في العودة إلى مرسيليا.. ثمّ ابتلع ريقه وصمت.. لم أكترث كثيرا بكلماته﴾ (خطيبي 2016، 25)، تشير العبارة إلى بداية توتّر العلاقة بين المواطن والسّلطة، وأهمّ ملامح فقد ثقته بها هو التّفكير في الهجرة، والعودة مجدّدا إلى مهجره سابقا، بالفرار من تردّي الوضع الأمني في بلده إلى الغرب المتحضّر، حيث الحياة الهادئة والآمنة والرّغيدة والممتعة كما يصوّرها الإعلام. غير أنّ موقف المواطن من السّلطة ليس واحدا، حيث يرد على لسان السّارد جوزيف نموذجين لموقف الأنا الجزائرية من الوضع السّياسي نهاية الثّمانينات، الأول: ﴿المناضل القديم الحاج محمّد الشّريف، الذي قبع في السّجن مع الشّاعر مفدي زكريّا قال لي: الماريكان والروّس هم اللي راهم يخلطوا في الحالة في الجزائر، وحابّين البلاد تتقلّب﴾ (خطيبي 2016، 94)، والثّاني:﴿ أما رفيقه الحاج مصطفى.. وهو الآمر النّاهي في المدينة فقال لي: الدولة يحكم فيها ذئاب، لازم يروحو ويخلوا مناصبهم للشّباب﴾ (خطيبي 2016، 95)، ففئة تؤمن بنظريّة المؤامرة، وتعتقد، أن الوضع في البلاد تحرّكه أياد أجنبيّة من أمريكا القطب اللّيبيرالي الرّأسمالي، ومن روسيا القطب الشّيوعي الاشتراكي(سابقا)، وما الجزائر إلّا عروس من عرائس القرقوز،كغيرها من دول العالم الثّالث تحرّكها أياد خارجيّة، ذلك أنّ الغرب الممثّل بقطبيه يرى فيها منطقة استراتيجيّة تجاريّا/ اقتصاديّا وسياسيّا، وموردا جيّدا للمواد الصّناعيّة والطاقويّة في إطار الحرب

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

الباردة بين القطبين. أما الفئة الأخرى فتعتقد بفساد من يتولّون مناصب الحكم في البلاد، وهم من يعمدون إلى خلق الفوضى، واعتماد مبدأ الإلهاء للمواطن حتّى يظلّ منشغلا البال عن السّياسة من جهة، وضعف حنكتهم السّياسيّة لتقدّمهم في العمر، وعليهم أن ينزاحوا لتمنح الفرصة للشّبّاب. وحتى في خلوة السّارد بنفسه وحديثه معها: ﴿يا سيدي الجيلالي الطف بنا﴾ (خطيبي 2016، 105)، قال بعد أن تسلّم رسالة من شيخ الزّاوية الرّيحانيّة مضمونها يخالف ويناقض تماما ما دار بينهما من حديث في الزّاوية، كأنّه باستعانته بالوليّ الصّالح يطلب منه الرّضا وقد أصبح النّاس بهذا المنسوب الفظيع من النّفاق، واستعانته بالوليّ الصالح، ازدراء للأنا العربيّة والمسلمة تحديدا، وينزل نفسه منزلة أرقى منها إيمانا بما يفترض أن تؤمن وتوقن به هي قبله، والأولى أن تكون هي أصدق لما تحتلّه من مكانة اجتماعيّة ودينيّة؛ لا التّملّق والنّفاق حتّى في رسالة يرسلها إليه عبر البريد- يتملّق فيها للحكم والنّظام موقنا أنّ عينا من عيون النّظام ستطّلع عليها، وتنقل ما فيها، وينال بذلك رضاها – السّلطة-. وهو موقف آخر للمواطن من السّلطة، يبدي لها خلاف ما يضمره، خشية بطشها، وتجنّبا لما يمكنها أن تلحقه به من أذى، وهي عبارة تشير أيضا إلى أنّ أكثر المنافقين المتملّقين الرّاغبين في التّقرّب من السّلطة هم رجال الدّين، على رأسهم رجال الزّوايا الممثّلين في شخص شيخ الزّاوية الرّيحانيّة. وفي موضع آخر من تحليّات فقد الثّقة بين المواطن والسّلطة وعدم اكتراثها لصحّته؛ يحذّر سليمان الساردَ من لا مبالاته في

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

فحص الأطعمة التي يشتريها من ﴿سوق الفلاح﴾ ﴿ناس راهي تموت من الماكلة، بصح واحد ما يجيب خبرهم﴾، في هذه العبارة العاميّة تحضر الأنا الجزائريّة في شقيها بصيغتها الجماعيّة، ويصوّر ما يمارسه الشّقّ الأقوى من ظلم وسلطة وإهمال على الشّق الأضعف. الشّقّ الأقوى وهو النّظام أو السّلطة أو الحكومة أو الجهات المعنيّة بحماية المواطن وأمنه من خلال إسم ﴿سوق الفلاّح﴾، وهو مؤسّسة عموميّة، وهمزة وصل بين المواطن ووزارة التّجارة والصّناعة وما شاكلها من جهات تقدّم منتوجا ماديّا استهلاكيّا، وسوق الفلاح مؤسّسة وجدت خصّيصا من أجل المواطن البسيط، ومساعدته على العيش بكرامة، بتوفير موادّ استهلاكيّة بأسعار في متناوله، وهو واضح من خلال كلمة ﴿الفلاّح﴾، لكنّ هذه الجهات المعنيّة بتيسير العيش للمواطن البسيط قد أصبحت في الواقع مصدر خطر يهدّد حياة النّاس، بما يباع لهم من سلع منتهية الصّلاحيّة، أو فسدت لعدم توفر شروط الحفظ المناسبة لها، ولا أحد يهتم لمن فقدوا حياتهم بسبب هذا الإهمال من السّلطات المعنيّة بالمراقبة، بل لا أحد سمع عنهم، ولا تحقيقات تفتح في أمر وفاتهم. ويؤكّد المؤلّف على تلك العلاقة السّيّئة والممارسة السّلطويّة من الحكومة تجاه شعبها، بإيراد قول أحد المتسوّقين في سوق الفلاح ﴿الحكومة راهي ناوية تقطع الزّيت نهارات﴾ (خطيبي 2016، 110)، حتّى تُخضع الشّعب، ويظل تحت هيمنتها وطوع إرادتها، ولا يفكّر في شيء آخر غير الحصول على الطّعام. تلك هي الصّورة التي يقدّمها سليمان للآخر، وهو-سليمان-

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

جزء من الأنا الجمعيّة الجزائريّة، صورة سلبيّة ومعمّمة على نحو مبالغ فيه عن علاقة السّلطة بالشّعب، والمعنى البعيد الذي تحيل عليه الفكرة هو قول سليمان بالتّأويل: أنّه إذا كان هذا هو حال الجزائري في بلده، فلا تنتظر أنت أيها الأجنبيّ أن تعامل بكرامة، فاحتط لنفسك واحترس ما استطعتَ، أو عد إلى وطنك حيث الأمن والحياة الهادئة. إضافة إلى قول الحاج محاد لجوزيف: ﴿يا جوزيف هذي البلاد ما يعيش فيها غير طويل العمر﴾ (خطيبي 2016، 150)، مشهد تأفّف الأنا من وضعها وحالها ووطنها، وسوء وهشاشة علاقتها بالسّلطة، بل وتشكوها وتحذّر منها الآخر من يستوطن بينهم وليس منهم.

* علاقة المرأة بالرّجل: شكل آخر من أشكال الآنا وآخر، تتجلّى في كثير من المواضع أهمّها: ﴿كادت تُقتل بطعنة سيف.. بسبب حماقة رجل كان يغار من وجهها وعلمها وزهدها.. راحت تصرخ عاليا: ياناس.. حاب يقتلني!.. حاب يقتلني!﴾ (خطيبي 2016، 33)، يغار منها لأنّها امرأة جميلة، ولا يمكنه الحصول عليها، كما أنّها تحسب من أهل الزّاوية، تحسن الكتابة والقراءة وهو لا، وبذلك تفوقه علما ودينا؛ تفوّق لا يقبله هذا العربيّ الصّحراويّ الفجّ، يريدها أن تكون له وأقلّ معرفة منه. رفضُ ما هي عليه من حال واستحالة تغييره وفق ما يرضيه دفعه إلى اتّخاذ قرار التّخلّص منها، وتصييرها إلى العدم، ما يشهد أنّ غيرته ليست ثمرة حبّ أو غرام بها، وإنّما رغبة في امتلاكها، ومنه امتلاك السّلطة على ما تملكه، وهو غير ممكن، فكان قتلها الخيار الأفضل، وإن كان السّارد الذي يمثّل

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

أنا الرّجل يصف الحادثة بحياد؛ فإنّه يرفض أن تشاركه رجولته إذ يقول:﴿سي محمود﴾.. كانت إيزابيل فعلا ﴿عيشة راجل﴾ (خطيبي 2016، 43)، ينعتها بـ﴿عيشة راجل﴾؛ عبارة شائعة تطلق على المرأة المسترجلة، وهي وصف مذموم، تستعمل للسّبّ والشّتم أكثر منها للوصف. وهو في موضع آخر متحيّز لذكوريّته ومستعل بها على المرأة مثل ﴿وجدوا صباحا بين القبور رضيعا.. لم تجد أمّ مكانا للتّخلّص منه سوى مقبرة النصارى..راح المؤذّن يعلم النّاس: الله أكبر، الله أكبر! رانا لقينا يشير صغير في جبانة النصارى ارواحو تشوفوه وقولونا شكون والديه. كرّر النّداء نفسه ثلاث مرّات.. الضّحى.. الظّهر.. العصر﴾ (خطيبي 2016، 55)، بالتّغاضي عن كونه كلاما غير واقعي وغير مقبول في ثقافة المنطقة بل في الثّقافة الشّرقيّة عموما، لأنّه لا يمكن أن ينادي المؤذّن في النّاس بهذا الكلام، وهو من قبيل تقبيح الأنا وتسفيهها، واستغباء للقارئ العربيّ، على اعتبار أنّه فرد من الأنا في صيغة الجماعة، وبالمقابل يبدي الغضب والاستهجان، ويدافع عن قداسة المكان الخاص بموتى النّصارى غيرةً عليه، واستنكارا لهذا الفعل، تَظهر الأنا/ الرّجل مستقبحة فعل الآخر/ المرأة، ومتأكّد أنّ من تخلّص من الرّضيع هي أمّه، غير أنّه محتمل أن يكون أحد أقاربها أو حتّى شريكها في الجرم رغبة في التّخلّص من الفضيحة والمسؤوليّة، ولا يُعرف أصلا إن كانت الأم حيّة أو ميتة، فبعض العائلات المحافظة والمتشدّدة قد تقتل الأمّ ويتستّر أفرادها على الجرم، ويلقى الرّضيع في مكان عام أو يقتل مع أمّه. فأنا الرّجل

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

تظهر عداء وتصدر حُكما مسبقا على الآخر/المرأة، وأنا الرّجل هنا تتحدّث على لسان المجتمع الذي يحمّل المرأة وحدها وزر الفعل. وبالمقابل يظهر الآخر/المرأة عداء موازيا نتيجة استضعافها وظلمها من الأنا (سرقة قلادتها) في: ﴿لم تجد ما تفعله سوى الصّراخ والعويل: سرّاقين.. سرّاقين! لكن لا أحد انتبه إلى أمرها، ولا أحد من جيران الحيّ سعى لنجدتها﴾ وحين أبلغت الشّرطة قال لها الكوميسار: ﴿شوفي مليح شكون الي سرقك.. كانت حيزيّة تنظر إليهم وهم يصرخون من آلام الضّرب بتلذّذ: يستاهلوا أولاد الحرام﴾ (خطيبي 2016، 63)؛ يختطف اللّص قلادة المرأة من جيدها، وتصرخ ولا أحد يهبّ لنجدتها، ويُقبض على عدد من أصحاب السّوابق، وهي لا تتذكّر وجه الفاعل؛ لكنّها تستعذب ألمهم وتأوّهاتهم، وتنعتهم بأولاد الزّنا؛اللّقطاء، المشهد في عين واقع بوسعادة مطلع التّسعينات ضرب من الخيال الجامح، في غمرة موجة ما عرف بالصّحوة الإسلامية فضلا عمّا يعرف عن أهلها من خصال الرّجولة وأخلاق وأنفة وغيرة، وهو تسفيه آخر للقارئ، باستغبائه وتضليله في آن، لكن السّارد يورد هذا المشهد، لتجسيد علاقة الأنا بالآخر؛ علاقة عداء وحقد وظلم وتحقير، فأن يسرق أحدهم امرأة أمام مرآى الجميع ولا أحد من رجال المدينة يأخذه شيء من الغيرة والأنفة على إحدى نسائها، فذلك يعنى أنّ الأمر خطير جدّا، وعلاقة الأنا بالآخر علاقة انفصال وتناحر وضغائن، وأنّ المرأة في المجتمع ليست سوى كائن يستحق كلّ ما يلحق به من الأذى. وحتّى المرأة كيف يعقل

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

ألّا تأخذها شفقة بهم وهم يعذّبون وواحد فقط من بينهم من يستحق العقاب؟! هل أصبحت ساديّة من فرط ما وقع عليها من الظّلم من الطرف الآخر؟.. نعم! هذا ما تشير إليه عبارة ﴿تنظر إليهم وهم يصرخون من آلام الضّرب بتلذّذ ﴾، وإلّا فمن يتلذّذ بألم الغير إلّا مكتوبا ومريضا نفسيّا ومعقّدا؟!. ثمّ إنّ دلالة اسم الشّخصيّة ﴿حيزيّة﴾ في هذا المقام نقض لعلاقة الأنا ﴿الرّجل﴾ بالآخر ﴿المرأة﴾ في تراث المنطقة، من خلال قصّة ﴿حيزيّة﴾ (أبولبن 2006، 105)، التي تجسّدها علاقة أسطوريّة، وذوبان في العشق حدّ الهلاك.

أمّا مشهد حديث السّارد مع الهادي، رسّام المدينة، الذي عاش فترة من حياته في روسيا وتزوّج من روسيّة، وأنجب منها ثمّ تخلّى عنها عائدا إلى الجزائر، وهو يسأله عن اسم ابنته: ﴿وعلاش سمّيتها أناستازيا؟ -أمّها سجلتها في البلديّة هكذا ولم تسألني، كانت عنيدة، أنا أردت ان أسمّيها السّعديّة. ــ كان يمكن أن تسمّيها أناستازيا السّعديّة. قلت متهكّما, -امها راسها خشين﴾ (خطيبي 2016، 116)؛ فيجسّد صورتين للأنا العربيّة في علاقتها مع الآخر الغربي في الغرب، الأولى؛ من حيث هو عربي والآخر غربيّ، والثّانية من حيث هو أنا رجل والآخر امرأة، فقد عشق المرأة البيضاء، الممشوقة القد، وأشبع غرائزه منها إلى حين أنجبت، فتخلّى عنها، رجل لا تعوزه روح المسؤوليّة، وجبان، ولئيم، لم يكن يعنيه من البلد غير نساؤه ومن المرأة غير جسدها، ولم يكتف بذلك، بل يعيب عليها أنّها عنيدة ولا تسمع الكلام، ورفضت

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023

العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.

ص.ص 82 - 151.

أن تسمّي البنت بالسّعدية، وسمّتها أناستازيا، وهنا تبرز ظاهرة صراع الثّقافات، ثقافة الآخر؛ المرأة الرّوسيّة ودلالة أناستازيا من التاريخ الرّوسي في بعده الثّقافي والسّياسي والاجتماعي. فأناستازيا أيقونة دلاليّة، اسم علم روسيّ قديم شهير، تحوّل إلى رمز مع الدّوقة أناستازيا ابنة قيصر روسيا نيكولاس رومانوف وألكساندرا حفيدة الملكة فكتوريا، العائلة التي أعدمها لينين إثر الثّورة البلشفيّة، ثمّ ظهرت الكثير من القصص حول الأميرة أناستازيا، فهي آخر رموز الحياة السّياسيّة لروسيا القيصريّة القديمة قبل الثّورة، أمّا السّعديّة؛ فاسم علم جزائري تراثي محض، شائع أكثر في بوسعادة والمناطق المجاورة لها، وبتتبّع أصله، نجده يعود إلى مرضعة رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم خير البريّة أجمعين؛ حليمة السّعديّة، اسم ذو بعد تراثي وديني، وكانت الغلبة من نصيب الثّقافة الغربيّة الرّوسيّة بانتصار أناستازيا على السّعديّة، وبه تثبيت لمركزيّة الثّقافة الغربيّة على الثّقافة العربيّة/الشّرقيّة، فالموقف في بعده الصّراعي، وحين أضاف جوزيف رينشار ﴿كان يمكن أن تسمّيها أناستازيا السّعديّة﴾ ثمّ علّق على كلامه بـ﴿قلت له متهكما﴾. فالتّهكّم من الرّسام عبد الهادي، هذا العربيّ الصّحراويّ البدويّ المتنطّع، ومن رغبته في تسمية ابنته باسم من ثقافته التي استبدلها بغيرها، من جهة، والتهكّم من استحالة اجتماع الثّقافتين؛ الغربيّة والشّرقيّة، وإذا اجتمعتا فالسّيادة حتما للغربيّة من جهة ثانية، أمّا علاقة عبد الهادي بالمرأة الرّوسية، فهي علاقة منفعة، ومتعة، ورغبة في امتلاك جسدها، فضّها ما

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023

ص.ص 82 - 151.

العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.

إن بلغ مرحلة تشارك مسؤوليّة الأبوّة، وتحوّلت إلى علاقة صراع الثّقافة العربية مع الغربيّة وصراع الرّجل مع المرأة.

وإنّ ما يمكن ملاحظته حول بناء الشّخصيّات هو المفارقة الكبيرة في كيفيّات النّهايات بين الشّخصيّاتوالشّخصيّات الذّكوريّة، فالنّساء كأنّهنّ عالقات في دوّامة لا مخرج منها، إلّا بالموت يقذف بهنّ من هذا العالم إلى عوالم الرّاحة والسّلام، معنى مجسّد بعبارات مختلفة على طول مسار السّرد؛ ﴿لالّة فاطمة ماتت..كلّا هي لم تمت، سافرت حيث يسافر العشّاق الأبرياء، ركبت بساط الحبّ من دون أن تودّعني. كما لو أنّها كانت تستفزّني للحاق بها﴾ (خطيبي 2016، 113)، ﴿إيزابيل ترقد في مقبرة.. تريح قلبها هناك..ربّما هي تتزاور مع تلك الشّابّة، المسماة صافية كتو.. ربما تلتقيها تحت التّراب.. ربما كانت تتواعد معها لحظات سُرقت منها في دنياها. قبر إيزابيل لابدّ أن يكون روضة عشق وأدب أو لا يكون﴾ (خطيبي 2016، 57)، ﴿هي الآن تتلذّذ بنومتها الصّحراويّة﴾ (خطيبي 2016، 27). وجميعهنّ متن موتة غير طبيعيّة بخلاف الشّخصيّات الرّجاليّة كالحاج محاد بالمرض، وعبد الرحمن زوج لالّة سعديّة بالاستشهاد؛ فلالّة فاطمة موتتها غامضة، وأغلب الشّك أنّها قتلت، وإيزابيل هشّم السّيل الجارف عظامها وقتلها، وصافيّة كتّو إنتحرت، وعلجيّة ماتت شنقا بإرادتها أو من طرف زوجها، خضرة بطعنة سكّين في الحانة أو متشرّدة.... نهايات مأساويّة وغير طبيعيّة كالمرض أو الهرم، على حين غرّة؛ يلقي بهنّ الموت من دائرة الحياة إلى خارجها، كأنّها

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

النّهاية والمصير الذي تستحقّه، فالموت بكرامة للرّجل وما دون ذلك فهو للمرأة، كأنّه رضا من اللّه على الرّجل وسخط على المرأة مهما علت في الزّهد أو تمادت في الفجور.

* علاقة الأنا بجماعتها: من مواضعها في النّص حين يطلب جوزيف التّوضيح من سليمان بعد أن سمعا خطاب الرّئيس، وإعلانه الإستقالة، فيردّ: ﴿يا سيدي الجيلالي الطف بنا!﴾. ــ واش صرا؟ ــ ربي يجيب الخير!﴾ (خطيبي 2016، 137)، تطلب الأنا اللّطف من الوليّ الصالح وقد انعطفت الأوضاع السّياسيّة للبلد نحو اتّجاه غامض، لا أحد يعلم ما يمكن أن يحدث، والآخر/ جوزيف يحاول أن يفهم، ويسأل سليمان، لكنّ سليمان لا يردّ، يكتفي بالدّعاء أن تأتي العواقب سليمة. وهو كثير التّوسّل بالوليّ، كما في قوله، ـ ﴿هذا ولا أكثر.. يا سيدي الجيلالي الطف بنا﴾ (خطيبي 2016، 146)، تلك عبارات يردّدها سليمان إزاء الوضع السّياسي والأمني في البلد، لا يخوض إطلاقا في السّياسة، بمعنى أنّه لا موقف له، ولا يشعر بالانتماء للوطن، ولا يحمل همّه، لا يحبّه ولا يغار عليه، لا أهل له فيه، مستعدّ لمغادرته والعيش في أيّ مكان آخر يوفّر له الأمن، حتّى لو كان فرنسا؛ العدوّ التّاريخي للجزائر، وهو ما يؤكّده قوله عن بيت جوزيف في فرنسا وقد اهترأ وتهالك ﴿المهم الواحد يستر راسو﴾ (خطيبي 2016، 142). ويقول جوزيف رينشار حدث أن ﴿ضربته، ومارست عليه سلطتي، وشتمته: يا كلب!.. يا حقير!.. يا قوّاد!..﴾ (خطيبي 2016، 83)، فأيّ سلطة هذه التي يملكها ويرى بأحقيّة

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

ممارستها على الآخر العربيّ، وتبيح له ضرب إنسان دون وجه حقّ؟! ليست غير الشّعور بالتّفوّق والأفضليّة والفضل عليه، فجوزيف يتحدث نيابة عن جماعته، التي مازال ينتمي إليها في أعماقه مهما ادّعى غير ذلك. فالأنا تبدي انفصالا عن جماعتها، بينما الآخر متمسّك بها حيث يجتهد في إظهار العكس.

**الأنا والآخر من خلال الحكاية الشّعبيّة المحليّة:**

تحلّ الحكاية الشّعبيّة محلّ التّاريخ لدى العامّة؛ يعلي من شأن الأبطال والرّموز، ويحذّر من نهايات الأشرار، ويحفظ للثّقافة الشّعبيّة امتدادها في الأجيال المتعاقبة، وهي حاضرة في النّص، أشهرهما في الثّقافة المحليّة البوسعاديّة والنّايليّة اثنتين:

*حكاية النّساء البطلات: في سياق حديث جوزيف رينشار عن إيتيان دينيه، وإنكار ما فعله بنساء أولاد نائل «لم يسمع شيئا من قصّة لالة تركيّة النّائلية، تلك الشّابة الثلاثينية، التي أنجبت ستّة ذكور، وهبتهم كلّهم، عن طيب خاطر، لأزواج فرنسيين أصابهم العقم، وبقيت هي تربّي بناتها الثّلاث، ولم يسمع قصّة خالتي ربيحة، التي كانت تركب ظهر بغلها، كلّ يوم، لتجلب الماء، من على بعد ثلاثين كيلومترا، لمدّة عام كامل، كي تحمي أبناء الحارة التي كانت تسكن فيها من حمّى التّيفوئيد» (خطيبي 2016، 47/ 48)، يستقبح الآخر الغربيّ جوزيف رينشار فعل صنوه الآخر الغربيّ إيتيان دينيه، ويعدّه شنيعا، لكنّه يقدّم له مبرّرا على نحو غير مباشر ؛«لم يسمع شيئا من قصّة...»، لكنّ هذا الاستشهاد في

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023

ص.ص 82 - 151.

العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.

هذا المقام تحديدا وهو الدّفاع عن بنات ولاد نايل، وانتقاء هذه القصّة من بين قصص البطلات الكثيرة، لا يوصف بالعفويّ؛ يزيد على القبح الذي رسمها به المستشرق دينيه قبحا، ففي القصة إقرار بمركزيّة الذّكورة ﴿أنجبت ستّة ذكور﴾، وكثرة عدد الذّكور مصدر فخر للعائلة، وصمّام أمان ضدّ الزّوال والانقراض؛ لكن الغريب أنّها لم تحتفظ بهم ووهبتهم ﴿عن طيب خاطر﴾ مطمئنّة راضية كأنّها سعيدة بفعلتها، لأزواج فرنسيّين عقّر، بينما احتفظت بالبنات الثّلاثة. موقف يشير إلى الاعتقاد بأحقيّة الفرنسيّ دون الجزائريّ بكلّ ما هو جيد وحسن وجميل، وعموما كلّ ما هو أفضل، لأنّه الغربيّ المتحضّر والأرقى، وهي نظرة تعظيم وإكبار للآخر الغربي وتحقير للذّات وإهانتها وإذلالها. كما يشير أيضا إلى المركزيّة الذّكوريّة، وأحقيّة الذّكر بما هو أفضل دون الأنثى، فحتما هؤلاء الذّكور في كنف العائلات الفرنسيّة سيحيون حياة رغيدة وسعيدة، ويتمتّعون بالرّفاه، ولن يتذكّروا مطلقا أنّهم أيتام، بينما بقيت البنات يكابدن الفقر والجوع واليتم، فضلا عن ويلات الاستعمار، لكنّ سؤالا يطرح نفسه هنا وبإلحاح: أين وجه البطولة والشّهامة التي يستشهد بها السّارد في فعل أمّ سلّمت فلذة كبدها للغريب ولم ترغم، بل ولم يطلب منها ذلك؟! والجواب الأقرب؛ أنّ الفرد الجزائريّ تابع للسّيّد الغربيّ، حريص على توفير الرّاحة والسّعادة له، وإن على حساب راحته وسعادته، لا إيثارا أو إنسانيّة وإنّما هو واجب وفرض عليه القيام به راضيا. أمّا قصّة ﴿خالتي ربيحة﴾ ففيها شيئ من البطولة، مع بعض

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

التّفاصيل الخرافيّة، التّنقل يوميّا صيفا وشتاء على ظهر بغل لجلب الماء لأهل الحارة أمر يحتاج إلى تبرير قويّ، فأين كان الرّجال والفتيان والشّباب؟!

أمّا قصّة خضرة بنت الطّاوس عاهرة أولاد نايل، فكان الشيخ ﴿موسى القط، الحافظ للقرآن ولمتن الآجرّوميّة عن ظهر قلب منذ صغره، ودرس في الزّيتونة، ومعلّم للّغة العربيّة هو من حكاها له، وبالتفاصيل المملّة؛ ولدت في حي العرب الفقير، من أب فرنسي أنكر نسبها، وفي سن الخامسة عشر بدأت ترافق والدتها إلى ﴿قهوة الزّهو﴾ ومن غسل الأواني إلى امتهان الرقص والبغاء، ثمّ الفرار مع الشاب الإباضي، والزواج منه، ثم الفرار ثانية لتعود إلى حياة الحانة بتفاصيل أكثر إثارة﴾ (خطيبي 2016، 48/ 49/ 50)، فالمعلم الفقيه الحافظ هو من أخبر جوزيف رينشار عن قصّة خضرة التي توصف بالعهر والبغاء، وصمة عار على جبين النائليّات، مهما كان ما صحّحه له مما افتراه عليها دينيه، كولادتها في ماخور، وموتها متشردة، بدل ولادتها من أب وأم معلومين، وموتها بطعنة سكّين من زبون، فرجلّ الدّين تكفّل بنقل أخبار من تاريخ الأنا للآخر الغربيّ، ويفضحها، فلو كان عجوزا من عجائز المقهى المواضبين على طاولة الدّومينو لكان فعلا منسجما مع طبيعة ومقام الشّخصيّة، لكّن علاقة التّابع بالسّيد، لا تفرّق بين مقامات الأتباع وطبقاتهم؛ ومتوزّعة على جميع مفاصل النّص ويعكسها تفاعل الشّخصيّات.

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

وأمّا قصّة ﴿سعديّة السّمراء وحبيبة البيضاء، ومزاولتهما للبغاء ثلاثين عاما انتقاما من الرجال جميعهم راقيهم ودونيّهم، عاقلهم ومجنونهم﴾ (خطيبي 2016، 51)، القصّة التي وجدها السّارد في مخطوط إيزابيل، تكشف عن علاقة الحقد والانتقام بين الرّجل والمرأة، التي تشي بمرضهن النّفسي ومعاناتهنّ من آثار الكبت لزمن طويل.

**علاقة الأنا/ الذّات بالآخر خارج الثّقافة الشّعبيّة:**

إذا حاولنا رصد سلوكات الذّات وتفاعلاتها مع ما ليس من الثّقافة الشّعبيّة أصالة، وما كان منتميا إلى الدّين أو السّياسة، أو إلى الثّقافة الدّخيلة، على اعتبار أنّ القناعات الفكريّة الأصيلة أو الدّخيلة تترجم إلى سلوكات وممارسات يوميّة فرديّة أو جماعيّة تحسب على الثّقافة، وهي تموقع الأنا من الثّقافة بشموليّتها، وتعكس مدى انسجام قناعات الذّات معها، أو تنافرها.

* علاقة الأنا بالعرف الاجتماعي والمعتقد الدّيني (الأيديولوجيا): النّص بين أيدينا ينتقد فئتين؛ فئة المستشرقين في تشويههم لصورة المجتمع العربي والجزائري منه على الخصوص، وتحديدا نساء أولاد نايل وبوسعادة، وفئة الذين يتناقلون الأخبار دون علم ولا توثيق، يساهمون في نشر الأكاذيب، كما فعلوا مع إيزابيل، غير أنّنا نجده من خلال هذا النّقد يناقض نفسه بالمفهوم النّقدي، إذ رسم شخصيّات المجتمع البوسعادي سطحيّة ومتناقضة وغريبة الأطوار، كعبد الكريم طيطي، شخصيّة نموذج التّيار الإسلامي الذي عرفته الجزائر في التسعينات، متطرّف يجمع بين كل

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023

ص.ص 82 - 151.

العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.

المتناقضات، متديّن ظاهريا، شاذ إذا اختلى بنفسه، عنيف في معاملاته، مستبدّ، إذ يحرص على إقامة مجتمع وفق قناعته، وهو نفسه خارج عن الأعراف والقوانين: ﴿سيّد العراك والشّجارات، نصّب نفسه زعيما مطاعا للحي، يلزم غير المصلّين من أصحابه على الوضوء والصّلاة في المسجد، يعاقب السّكارى بالنوم في الشّارع وعدم دخول بيوتهم، يخرج صبيحة كلّ جمعة يتوجّه إلى السّوق مرتديا قميصا أبيض يشتري خضارا يعيد بيعها، أو يعمل حارسا في المدرسة ليدفع مستحقّات قاعة كمال الأجسام واقتناء منشّطات لتسريع نموّ عضلاته، يشبه الأفغانيّين في قناعاتهم، يأكل في الوجبة الواحدة ثلاث وجبات، ويمارس شذوذا جنسيّا مع جذع شجرة الصّبّار، يتحرّش علنا بالفتيات، اللّواتي يرتدين تنانير قصيرة، ويرمي الحمض الحارق على سيقانهنّ، وتوعّد لو يبصر أي واحدة بصحبة رجل من غير محارمها يفقأ عينها﴾ (خطيبي 2016، 42/ 43). إضافة إلى شخصيّة شيخ الزّاوية الرّيحانيّة: ﴿سيدي المنوّر.. إبنته الوحيدة، التي تعمل في قنصليّة الجزائر.. رجل دين وسيّد طريقة صوفيّة﴾ (خطيبي 2016، 58)، ﴿شيخ الزّاوية الرّيحانيّة التّاريخيّة الأشهر في الهامل تعمل ابنته في القنصليّة في فرنسا﴾ (خطيبي 2016، 67.. 70)، سيّد الطّريقة ورمز الدّين الأوّل في المجتمعات الشّعبيّة والمحافظة، يضرب بعرض الحائط كلّ الأعراف الاجتماعيّة، وتعاليم الدّين بإرسال ابنته التي ليس له غيرها إلى فرنسا، تعمل تحت إدارة كافرة، تمارس مهامّها بالتّعامل مع رجال أجانب، براتب شهريّ مغر ولا شكّ. إضافة إلى شخصيّة

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023

ص.ص 82 - 151.

العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.

سليمان بلهوم صديق السّارد، الذي قاطع والده حين اشتدّ عود لتعنيفه له في صباه، ويرفض زيارته في المقبرة؛﴿كان يعنّفه هو وإخوته وأخواته السّت، ويضربهم بكفّه الخشنة على وجوههم، أو بقضيب أو بأي شيء آخر يجده أمامه، ويمنع عنهم الأكل ليوم أو يومين.. قاطعه سليمان في آخر حياته، لم يكن يزوره، ورفض أن يحضر جنازته﴾ (خطيبي 2016، 81)، عجوز بوسعاديّ يفترض أن يكون رمزا للحكمة والوقار، لكنّه قاطع أهله وعارض والده، ويرفض لقاءه، حتّى وهو ميّت في قبره، بسبب تعنيفه له في صغره. إلى جانب شخصيّة الطّاوس النايليّة من الشّخصيّات التّراثيّة في النّص، موصومة بالعهر، أنجبت من فرنسيّ رفض الاعتراف بنسب ابنته، مارست الرّذيلة وجرّت ابنتها إليها، وبن علي الشّاب الإبّاضي المتمرّد على الطّقوس والعرف، يعربد بين الحين والآخر، تزوج بعاهرة فرّت معه، ودخل بها في العراء، ثمّ عاد بها إلى مسقط رأسه غرداية المدينة الرّمز للتّديّن والتّشدّد، على استحالة الأمر واقعيّا لا سيّما في فترة الاستعمار الفرنسي، غير أنّ المجتمع الإبّاضي تخيّليّا قبله، ولم يصدر في حقّ هذا الشّاذ عن أعراف الجماعة والفاسق حكم النّفي أو الطّرد. وجارُ السّارد؛ الحاج علي ، أكّال للسّحت؛ يستدين المال ولا يردّه؛ ليزور بيت الله باستمرار، ﴿ليتبّول على آثامه ويعود كما ولدته أمّه﴾ (خطيبي 2016، 84)؛ تحوير عن الحديث النّبوي الصّحيح: ﴿من حج ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمّه﴾ (زغلول 2006، 526). وفي المجمل؛ الشّخصيّات الفاعلة في البناء

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

النصّي مشوّهة ومتناقضة مع نفسها، تنافق المجتمع، بنيتها تصورن الإنسان البوسعادي قديما وحديثا فردا منافقا حينا، ومكبوتا حينا آخر، أو كلاهما. لا يملك وعيا أو رؤية واضحة، لا يحمل قيما اجتماعيّة، ولا دينيّة، وإن أظهر خلاف ذلك، علاقته بمجتمعه ودينه علاقة انفصال، إلّا ما كان خادما للمصلحة الخاصّة.

* علاقة الأنا/الذّات بالجسد الأيروتيكي: تتّصل الذّات بغيرها عبر علاقات مختلفة، منطلقة من علاقتها بذاتها، ومنظورها لجسدها، وهي غالبا لا تخرج عن علاقة إشباع رغبة قبل كلّ شيء، إذ يحضر الجنس في النّص على نحو لافت، يمكن فرز تجلّياته إلى ثلاثة ظواهر:

ـ المثليّة الجنسيّة: تتضمّن الجنسين، كعلاقة ايزابيل ايبرهارت بلالة فاطمة شيخة الزّاوية الرّحمانيّة: ﴿كانت تدفئ قلبها بلقاءاتها الحميمة مع الشّيخة لالا فاطمة، في الزّاوية الرحمانيّة، حيث كانت تجالسها كلّ يوم بعد العصر، تتحدّث معها في الدّين وفي شؤون أخرى، تتبادل معها عناقات وقبلات خاطفة، ثمّ تعود كلّ واحدجة منهنّ إلى سيرتها الأولى، إيزابيل في الارتماء في حضن سليمان أهني.. ولالّة فاطمة في تدريس الفقه لنساء مثلها، ومواجهة ذكوريّة أبناء عمومتها﴾ (خطيبي 2016، 112)، علاقة غير سويّة بين امرأتين تنظر إليهما الجماعة بعين الوقار والاحترام والتّبجيل، بينما هما في كواليس اللّقاءات غارقتان في طينيّة الجسد ووحله. أمّا النّموذج الرّجالي؛ فبالعلاقة بين جوزيف رينشار وسليمان دلهوم، تظهر بجلاء في سياق الحديث عن عبد الكريم طيطي وكيف كان يعاقب

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

السّكارى ويمنعهم من النّوم في بيوتهم مع زوجاتهم يقول جوزيف: ﴿كنت أسمع صراخهم ومناوشاتهم وأنا ممدّد بالقرب من سليمان في الفراش... هو سبب وجودي في هذا البلد.. لقد رفض دعوتي له بالمجيء للعيش في فرنسا، كي لا يبتعد عن أمّه زوليخة التي أحبّها كثيرا، هي المرأة الأولى والأخيرة التي أحبّها في حياته، ورضخت أنا لرغبته بالاستقرار معه﴾ (خطيبي 2016، 34)، معنى لا يحتاج إلى تأويل ليُفهم أنّ سليمان مصاب بعقدة أوديب، تؤكّدها مواضع أخرى من النّصّ؛ ك﴿وصف أحد القادة المجاهدين له بـــ﴿المخنّث﴾، بعدما استفزّه لطف سليمان المبالغ فيه ورخاوته أحيانا، وعدم قدرته على الدّفاع على نفسه﴾ (خطيبي 2016، 83)، ومقاطعته والده لتعنيفه له وضرب والدته، والسّارد على طول مسار السّرد يقوم بعمليّة المشابهة بينه وبين إيزابيل إيبرهارت فيما كان من حياتها وواقع حياته، فكما كانت هي المرأة المسترجلة تعيش رفقة زوجها سليمان هو أيضا يعيش رفقة سليمان، الذي لم يحبّ امراة غير أمّه، لذا اختار شراكة طرف لا يختلف عنه بيولوجيّا، وقد رفض دعوته للعيش معه في فرنسا، ليبقى بجانب أمّه، لكنّ جوزيف ولشدّة تعلّقه بسليمان رضخ واستجاب لعاطفته نحوه، وقرّر الاستقرار معه، فجوزيف رينشار يرى نفسه يشبه إيزابيل في كلّ شيء، حتى مثليّتها الجنسيّة وعلاقتها بلالّة فاطمة التي لم تقترن برجل مطلقا كسليمان تماما، وقضت ردحا من عمرها مع والدها. وإنّ ما يضفي قلقا دلاليّا هو ما يوحي به اسم ﴿زليخة﴾ في المخيال العربي

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

الإسلامي؛ زليخة المرأة التي أحبّت يوسف الفتى الذي ربّته، ثمّ راودته عن نفسه، دلالة لا تزيد من علاقة الأنا بالجسد إلّا تشوّها وانحرافا، وتنكّرا للطبيّعة.

ـ العهر والكبت: من خلال بنية شخصيّة خضرة بنت أولاد نايل، الشّابّة التي مارست أمّها الطّاوس العهر وأورثتها إيّاه، وما كتبه عنها إيتيان دينيه في كتابه ﴿khadra Danseuse Ouled Nail﴾، ذات ترى في جسدها وسيلة للكسب، وترفض أن يكون لغيرها، بتخلّيها عن زوجها. ولا تختلف عنها إيزابيل التي احتفظت بزوجها، فإن كانت قد ظهرت كمثليّة، فهي أيضا تمارس تجارة الجسد:﴿تموّل جنونها ومغامراتها الصّحراويّة، بالاستدانة من بعض ميسوري الحال، من موظّفين وعسكر ورجال دين، وقوّادين يضاجعونها﴾ (خطيبي 2016، 85) (انظر التّعليق رقم 2)، وتنضمّ إليهما علجيّة الزّوجة المحصّنة، التي قتلها زوجها، بعد أن شكّ أنّها تخونه مع شابّ ثلاثيني، والخيانة تعني أنّها كانت تبحث عن إشباع جسديّ؛ ﴿كنت أرى أخت علجيّة الصّغرى.. تأتي صباحا إلى البيت، بعدما يغادر الميلود إلى عمله، للاعتناء بالطّفلين، بينما تخرج علجيّة مرتدية ملحفة بيضاء، وحذاء بكعب عال إلى وجهة أجهلها.. وجدت قبل أسبوعين مشنوقة.. بحسب ما ورد على ألسنة البعض.. الميلود قتل زوجته خنقا.. بعدما راوده شكّ أنّها ترتبط بعلاقة مع شابّ ثلاثيني تتواعد معه وتختلي معه في محلّه﴾ (خطيبي 2016، 74، 75)، وتلتحق بالثّلاثة ﴿سعديّة السّمراء، وحبيبة البيضاء، اللتين قضيتا ثلاثين

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

عاما في مواعدة العشّاق والانتقام منهم، وفي الانتقال من سرير إلى آخر، حتّى قيل أنّهن ضاجعن رجال المدينة كلّهم، بما في ذلك المجانين والمؤمنين الخانعين جدا لله، تمرّغن في الأجساد الذّكوريّة حتى كرهن كلّ الرّجال﴾ (خطيبي 2016، 51)، عهر لثلاثين عاما، امتهان للجسد حتّى تحوّلتا إلى أجساد فاقدة للحسّ والحياة، لكنّه انتقام لا يقدّم له النّص مبرّرا أو شرحا.

أمّا الجسد الذّكوري فيمثّله بن علي؛ الشّاب الإبّاضي، رمز التّمرّد والعربدة والدّياثة والمجون، يزهد في كلّ الأجساد الأنثويّة ويعشق جسدا مشاعا لراقصة، يتزوّجها في العراء، يعود بها إلى أهله، لكنّها ترفض الملكيّة الفرديّة وتؤثر الملكيّة الجماعيّة بمقابل، فتفرّ إلى حانتها ومرقصها، ومع ذلك يظلّ على عهده، يتوسّلها الرّجوع وهي تتأبّى عليه. فكيف لعربيد عشق عاهرة أن يكون بهذا الوفاء حدّ إذلال نفسه وإهانة جماعته؟! علاقته بجسده وبذاته تمثّل علاقة المتديّن بمعتقده ومجتمعه، وترسم ملامح الوجه الآخر للإبّاضيّ، يمارس العهر ويصرّ عليه، كأنّه يعاني عقدة ما نتيجة ما يعرف عنهم من صرامة التّديّن والمحافظة. والحال نفسه مع شخصيّة عبد الكريم طيطي. فإلى جانب نبرة السّخرية التي يوحي بها لقب ﴿طيطي﴾، ويشير إلى أنّه ليس غير مهرّج اجتماعي وإسلامويّ، يظهر في صورة شاذ يعاني نقصا نفسيّا فادحا وكبتا جنسيّا، يسعى إلى التعويض عنه بتلك السّلوكات؛ ﴿لا يختلف عن الأفغانيّين الذين حاربوا السوفيات.. وعادوا إلى الجزائر ليحاربوا الأجانب وغير

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

المسلمين.. يأكل ما يعادل وجبة ثلاثة أشخاص.. وسمعت أنّه يدكّ.. في جذع شجر الصّبّار كلّما شعر برغبة في ممارسة الجنس﴾ (خطيبي 2016، 43)، و﴿ينظّم حملات لمنع السكارى من النّوم في بيوتهم ليلا، وإجبارهم على النّوم في الشّارع﴾ (خطيبي 2016، 42)؛ مكبوت يمارس الشّذوذ، ويمنع ما استطاع من الرّجال من النّوم في بيوتهم مع زوجاتهم، والقيام بما لا يمكنه هو القيام به، فما ينقصه لتمام فحولته يكمله بما يمارسه من عنف على الرّجال، وعلى النّساء؛ يرمي بالحمض الحارق على من تلبس منهنّ القصير، ويفقأ عين من تواعد رجلا، شخصيّة ترسم معالم الذّات السّلفيّة مطلع التّسعينات؛ شرهة للطّعام كما للجنس، مكبوتة ومنافقة.

كلّ النّساء في النّصّ نسخة في جانب ما من إيزابيل المجنونة بالتّرحال، والعاشقة الملول، ومزدوجة الجنس، قضت حياتها في الجزائر بين الزّوايا والشّيوخ ورجال الدّين، تشبّهها سعديّة الأرملة؛ ﴿لست أجد لها شبها سوى في جارتنا لالّة سعديّة، التي تتحوّل في أيّ لحظة، وبسهولة من امرأة إلى رجل، ومن رجل إلى امرأة﴾ (خطيبي 2016، 43)، و﴿خضرة تشبه إيزابيل إيبرهارت في غنجها المحتشم﴾ (خطيبي 2016، 51)(انظر التّعليق رقم 3).

ـ الازدواجيّة الجنسيّة: تمثّلها إيزابيل؛ ﴿كانت بنتا مسترجلة، تضاجع الذّكر والأنثى، لا تكتفي بجنس واحد، تلبس هويّتين في جسد امرأة، وتغيّرهما وقت الحاجة، تعبر الشّوارع والسّاحات في هيئة رجل، وتختلي بنفسها، في بيت أو في ماخور، كامرأة مكتملة المفاتن، لست أجد لها شبها

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

سوى في جارتنا لالة سعديّة﴾ (خطيبي 2016، 43)، سعديّة الأرملة، المتحرّر جسدها من كلّ ملكيّة غيريّة، فأصبح حرّا في اختيار الهويّة وبالتّالي الشّريك.

بالتّركيز على شّخصيّة إيزابيل التي يعتقد السّارد أنّها تشبهه إلى حدّ بعيد، وكلّ شخصيّة حاضرة في النّص تشبهها على نحو ما، وهي المثلية والبغيّ والشّبقة والمزدوجة، ومجموع هؤلاء جميعا يرسم صورة المجتمع البوسعادي مطلع التّسعينات، مجتمع رجاله سذج ومنافقون وجشعون وشواذ، ونساؤه مضطربات وشبقات، إلّا الميلود الذي قتل زوجته غيرة؛ لكنّه أصبح قاتلا/ مجرما، أي مرفوضا اجتماعيّا، وقد كُمّم صوته وألغي حضوره بدخوله السّجن، والمرأة زوينة التي لم يذكرها السّارد بسوء، امرأة لها زوج وأطفال، تنظف بيت جوزيف وسليمان بلهوم، لكنّها في الواقع تسيء إلى نفسها وإلى المجتمع البوسعادي، فهي تعمل في بيت لا امرأة فيه، وهي زوجة رجل بوسعادي حتّى لو كان كفيفا، وفقدان البصر يعني عدم القدرة على رؤية الحقيقة والصّواب، ولا يمكنه إطلاق حكم سلبا أو إيجابا، لتساوي اللّيل والنّهار عنده.

**الذّات المستدعاة بين التّاريخ والمتخيّل:**

تقوم رواية أربعون عاما في انتظار إيزابيل على ترسانة من الوقائع التّاريخيّة،﴿ولا شكّ أنّ التّاريخ حين يصبح مادّة للرّواية، يصير ضربا آخر من ضروب المعرفة الإنسانيّة﴾(وادي 1995، 26) غير أنّ المؤلّف ألحق بها الكثير من التّحويرات؛ لأماكن عاشت فيها الشّخصيّات،

وأحداث عاصرتها، وحضرت رموز عينيّة من الواقع مطموسة بعض معالمها، كتغيّر أسمائها أو تواريخها، فالتّحوير الفنّي مطلوب، ﴿حتّى يستطيع بخياله أن ينقلنا إلى الجوّ الحضاري الذي تدور حوله أحداث الرّواية، كذلك فإنّ عليه أن يبحث عن مسوّغ معقول لسلوك الشّخصيّات التي يصوّرها﴾ (وادي 1995، 26) ، وهو ما سيركّز عليه المبحث، بتعقّب الشّخصيّات التّاريخيّة في حقيقتها وتخييلها:

*إتيان دينيه: الرّسّام الشّهير خارج النّص ﴿خرّيج مدرسة الفنون الجميلة وأكاديميّة جوليان بباريس، ملّم بكلّ ما يتعلّق بفنّ الرّسم والنّحت الغربي منذ اليونان، انضمّ إلى تيّار الاستشراق، ثمّ تحوّل عنه إلى تفكيك المنظور الاستشراقي من الدّاخل، ممارسة وإبداعا ورؤية وفكرا وإيديولوجيّة ﴾ (بودربالة 2019، 35.. 39)، ﴿أسلم سنة 1913م، أعلنه رسميّا في المسجد الكبير سنة 1927، تحوّل جذريّا بعد اعتناقه الإسلام، أتقن العربيّة فصيحها ودارجتها، زار البقاع المقدّسة رفقة سليمان سنة 1929م، وتوفّي في العام نفسه﴾ (بودربالة 2019، 30.. 33)، أمّا رواية ﴿خضرة راقصة أولاد نايل، فقد نشرت سنة 1910م بحجم 176 صفحة، باسم المؤلّفين إيتيان ديينيه وسليمان بن ابراهيم، تألّفت من أربعة عشر فصلا، تقابل كلّ فصل لوحة توحي بموضوعه﴾ (بودربالة 2019، 57) (انظر التّعليق رقم 4)، أمّا مضمونها؛ فهي ﴿تعكس عالما خياليّا خصبا، يمتزج فيه الخيال مع الواقع والأسطورة والقصّ الشّعبي، كما تترجم .. الرّسم الكاريكاتوري لبعض الشّخصيّات النّموذجيّة، التي لها

علاقة بالحريم والأماكن الموبوءة (دور البغاء مثلا) مثل رموز السّلطة والطّرقيّة، وأصحاب النّفوذ، لقد فضح الكتاب أصحاب الدّجل والشّعوذة والخداع الذي يرتبط بالطّرقيّة ودوائر الاستعمار﴾ (بودربالة 2019، 62، 63)، بينما السّارد جوزيف رينشار يفتتح سرده بـــ﴿سأرسم لوحتين أخيرتين لياليّات إيزابيل إيبرهارت، أردمهما في حديقة البيت..وسأفعل الشّيء نفسه مع اللّوحات الثّلاث عشرة الأخرى.. أناس يأتون من بعدي، يحفرون عميقا؛ بحثا عن لوحاتي ليقيّموها.. ويكتبون سيرة لي غير سيرتي الحقيقيّة.. وربّما، سيحرّفون اسمي ﴿جوزيف﴾ إلى ﴿يوسف﴾، يركّزون على فصل واحد من حياتي.. يوم اعتنقت الإسلام ونطقت بتلعثم الشّهادتين في المسجد الكبير، ثمّ أدّيت مناسك الحجّ رفقة سليمان﴾ (خطيبي 2016، 12)، وفيه إشارة واضحة إلى توازي سيرة دينيه بسيرته، غير أنّ دينيه لقي الاهتمام، وحظي بالشّهرة، والتّكريم، بينما هو رسّام نكرة مهمّش لا يعرفه أحد، ثمّ يقول: ﴿أعدت ترتيب المخطوط.. دقّقته، ثم قمت بتحويل ستّة فصول منه إلى ستّ لوحات تشكيليّة، وضعتها إلى جنب اللّوحات السّبع الأخرى.. لم يتبقّ الآن سوى رسم الفصلين الآخيرين منه. سليمان لم تعجبه فكرة تحويل مخطوط قديم إلى لوحات﴾ (خطيبي 2016، 14)، ويقول مقيّما لعمله وملخّصا الغرض منه ﴿أعرف أنّي لست جيّدا في الكتابة، ولاأمتلك أسلوبا سرديّا مقنعا مثل أسلوب إيتيان دينيه... سوف أكتب انتقاما من إيتيان، وإنصافا لبنات أولاد نائل﴾ (خطيبي 2016، 46). جليّ أنّ

شخصيّة السّارد جوزيف في النّصّ محوّرة في كلّياتها وجزئيّاتها عن شخصيّة إتيان دينيه الحقيقيّة خارج النّصّ، فلم الانتقام رغم التّطابق وهو الآخر الأقرب إليه من غيره؟! يمكن تأويله فنيّا ضمن فكرتين:

الأولى؛ لأنّ الآخر المتقدّم الممثّل في شخصيّة دينه خط مواز لشخصيّة الآخر المتأخّر السّارد جوزيف، يتطابقان هوويّا، غير أنّهما يتقاصيان من حيث مآلات فنّهما، فقد رسم دينيه لوحات وضمّنها كتابه «خضرة راقصة أولاد نايل»، ووضع مقابل كلّ فصل لوحة، أما جوزيف، فبعد أن حصل على مخطوط إيزابيل، حوّل كلّ فصل منه إلى لوحة، والمفارقة أنّ لوحات دينة مضت إلى العالميّة أمّا لوحات جوزيف فمآلها الرّدم. والمشترك بين هذه اللّوحات أنّها تتناول شخصيّتين، إحداهما خضرة؛ الأنا الشّرق، والأخرى إيزابيل؛ الآخر الغرب. اشتهرت الأولى لأنّ دينيه شوّهها، والثّانية لما عرف عنها من ترحال وتديّن، وجاء السّارد ليقول أنّ إيزابيل في السّرّ مثل خضرة تماما في العلن. وكان يجب أن يكون مصير لوحاته الإتلاف والدّفن، لا العالميّة؛ لأنّه بصفته أناً غربيّا رفع من شأن خضرة الآخر بالنّسبة له، أمّا هو فاعتنى بإيزابيل التي تشاركه إنيّته، ومن حقّه العالميّة، ومع ذلك ظلّ مغمورا. والثّانية: فهو انتقام من جوزيف بتشويه إيزابيل، لأنّها لا تختلف في سرّها عن خضرة التي شوّهها دينيه؛ تشويه انتقاما من تشويه، انتقام للذّات (الآخر) من ذاتها، بقدر ما كانت معروفة به في العالم الواقع، من الجمال الرّوحي والرّقي الإنساني،

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023

العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.

ص.ص 82 - 151.

والتّفكير المتميّز، والفنّ المبدع حضرت في العالم الممكن بكلّ ما يناقض ذلك ويلغيه.

إنّ ما يثير التّساؤل والحيرة أنّ جوزيف قضى مع سليمان بلهوم مدّة أربعين عاما، وهي نفسها المدّة نفسها التي قضاها دينيه مع سليمان بن ابراهيم، منذ سنة 1888م حتّى نهاية 1929م (بودربالة 2019، 26، 27)، فما المغزى من وراء ذلك؟ هل هو مقصود أم صرف إثارة ومراوغة دون هدف؟! ربّما هو تأكيد على أنّ جوزيف رينشار ليس غير إيتيان دينيه، والأربعون عاما كانت انتظارا للانتقام لخضرة من دينيه، بتشويه إيزابيل من قبل دينيه نفسه لكنّ مشوّها.

* سليمان بلهوم صديق السّارد/ جوزيف: شخصيّة محوّرة عن سليمان بن ابراهيم (بودربالة 2019، 25.. 28)، الشّابّ الرّسّام البوسعادي الذي لازم الرّسّام إتيان دينيه وكان شريكا له في الإبداع والفنّ، فكما أنّ السّارد نسخة محوّرة عن الرّسّام دينيه؛ شخصيّة الصّديق تتمّة للصّورة، غير أنّ سليمان بلهوم كان أسنّ من سليمان بن ابراهيم، وقد حرص السّارد في أكثر من موضع على وصفه بأنّ بدنه ما يزال يحتفظ بقوّته ونشاطه. وبلهوم أيضا حضر في صورة مشوّهة عن بن ابراهيم الذي كان أصغر سنّا من دينيه، شريكا في الإبداع، وصديقا معينا لدينيه دينا ودنيا، ومثقّفا يملك كمّا من المعارف والمواهب، وشخصا سويّا، وسببا رئيسيّا في إشعاعيّة دينيه﴾ (بودربالة 2019، 25)، فبن ابراهيم بصفته ممثّلا للأنا شريكا للآخر دينيه، بينما بلهوم ممثّلا للأنا أيضا، لا صوت له، شخص

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

مخنّث ضعيف، شبه جاهل، خاضع للآخر جوزيف، وخادم له. تحضر الذّات مرّة أخرى ممثّلة الأنا نقيضا لذاتها.

* لالّة فاطمة صديقة إيزابيل: ورثت مشيخة الزّاوية عن والدها هي نفسها لالّة زينب ﴿شيخة﴾ الزّاوية الرّحمانيّة الشّهيرة بالهامل ﴿ لالة زينب القاسمية من أعلام العلم والثقافة البارزة في تاريخ الجزائر مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين ، وهي بنت محمد بن أبي القاسم مؤسس زاوية الهامل ببوسعادة تولت مشيخة الزاوية بعد وفاة والدها خلال 1897 – 1905م﴾ (فرّاد 2006، 142)، المحوّرة إلى الزّاوية الزّيحانيّة التي ذكر السّرد أنّها تقع في الهامل، وتبعد بـ 13كلم عن بوسعادة، وهي المسافة نفسها في الواقع، على اعتبار أنّ الزاوية فضاء تمتدّ فيه الأنا/ الذّات، وتمتح منه هويّتها. وقد تولّت لالّا زينب المشيخة بعد وفاة والدها الشّيخ محمّد بن أبي القاسم سنة 1897م، وتوفّيت سنة 1905م. وقد التقت حقيقة مع إيزابيل إيبرهارت في الزّاوية الرّحمانيّة﴾عاشت إيزابيل إيبرهارت في تلك الزّاوية إثني عشر يوما.. في ذلك الوقت كانت ترأس الزّاوية امرأة مسترجلة مثلها.. هي إبنة عم الجد الثّاني للشّيخ المنوّر﴾ (خطيبي 2016، 72)، فقد التقتها حقيقة. وإذا كان الشّيخ المنوّر في النّص يتولّى المشيخة في زمن الحكاية؛ سنة 1992م، ما يعني أنّه هو الشّيخ خليل بن مصطفى، ولالّة زينب هي حقيقة إبنة عم الجد الثاني للشّيخ خليل بن مصطفى (شيوخ زاوية الهامل بلا تاريخ)، وفق ما يذكره السّارد. وما يلاحظ أنّ الشّيخ المنوّر

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

والد لالّا فاطمة البنت الوحيدة له، المحوّر عن الشّيخ خليل بن مصطفى والد لالّا زينب الشّريفة الإدريسيّة البنت الوحيدة أيضا له، والشّيخ الحالي للزّاوية في حاضر السّرد هو الآخر له بنت وحيدة، لم تتولى المشيخة وإنّما تزاول مهامها في القنصليّة الفرنسيّة، خاضعة للثّقافة الفرنسيّة وشروطها وقوانينها. لالّة فاطمة ممثّلة للأنا، رمز في الواقع للتّقى والورع والعفاف والوجاهة والثّورة ضدّ المستعمر الفرنسي (انظر تعليق رقم5) ، والشّرف تحضر منحرفة غير سويّة، ومنافقة، ومسترجلة، تعكس علاقة الأنا بنفسها كأنّها تنظر في شظايا مرآة مكسورة.

* إضافة إلى شخصيّات لمّح إليها ولم يذكرها صراحة، كالمخرج السّينمائي أحمد راشدي الذي وصفه بالأصلع والكثّ الشّاربين في الصفحة 19، هو زوج إبنة الرّسام فرشافليت، والرسّام البوسعادي الذي درس في روسيا؛ اسمه توفيق لبصير، ما يزال على قيد الحياة، وعليه سؤال ملحّ يطرح نفسه؛ مادام النّص قد استدعى شخصيّة من التّاريخ الثّقافي، وذكرها بصريح اسمها، منذ الصّفحة الأولى حتّى آخر صفحة، وادّعى الكشف عن جوانب خاصّة من حياتها خارج التّرحال والتّدين، فلماذا عمد إلى طمس شخصيّات أخرى استحضرها وحوّرها؟. والجواب في الشّخصيّات المحوّرة نفسها، وهي الممثّلة للأنا العربي الشّرقي، تمّ تشويهها على مستويين، الأول؛ بتحوير هويّتها عن الواقع، والثّاني بتشويه بنيتها التخييليّة، برسمها منافقة ومكبوتة وضعيفة وخاضعة وخانعة ومهلهلة، ولم يكن من الممكن استدعاءها كما هي أو

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

أفضل ممّا هي عليه. ما يحيلنا إلى القول أنّ الحقيقة التي يتّكئ عليها النّص بقوة هي الشّخصيّات الواقعيّة؛ غير أنّها حضرت مشوّهة منقوصة مجهولة. العلاقة بين الأنا في حقيقتها والأنا نفسها متخيّلة تحمل طابع القطيعة والانفصال والتّنافر والتّناقض.

* لغة الأنا والآخر خارج وداخل النّص: تعدّ اللّغة مقوّما مهمّا من مقوّمات هوية الذّات وثقافتها وانتمائها، كما ينظر إليها على أنّها معرفة، ووعاء للفكر، ولا وجود للفكرة خارج اللّغة، وبعلاقة وطيدة ووثيقة أكثر إذا تعلّق الأمر باللّهجة العاميّة، والثّقافة والتّراث الشّعبيّين، وهي –العاميّة– سابقة على الفصحى لدى الفرد ﴿أنا﴾ كان أو ﴿آخر﴾، وتوظيفها في نصّ عربيّ جزائريّ أشدّ تأثيرا على المتلقّي (الجزائري). فالكثير من العبارات في نصّ الرّواية وردت باللّهجة العاميّة، لكن؛ ليست هي لهجة منطقة بوسعادة، وبتصريح المؤلّف نفسه على لسان السّارد: ﴿يترصّدون كلّ خط وة لعابر لا ينطق الغين﴾ قافا، بلهجة ﴿ولاد البلاد المحليّة﴾، يتعقّبونه، ويركضون وراءه، لا يقبلون لغير أبناء هذه البقعة بالعيش في هدوء.. يرفضون كلّ القادمين وكلّ المارّين، ومن الممكن أن يضعوني في سلّة واحدة معهم، وينفضوا أيديهم منّي﴾ (خطيبي 2016، 132)، فلهجة بوسعادة يقلب فيها الغين قافا، وهو ما لا أثر له في النّص. فإذا كان توظيف اللّهجة العاميّة للإيهام بالواقع والحقيقة كواحد من أهداف توظيفها، فلم لم يوظّف النّصّ اللّهجة المحليّة لمنطقة بوسعادة، وهي مسقط رأس المؤلّف؟! لعلّ التّفسير الأقرب، على

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

اعتبار اللّغة أداة للهيمنة بالمفهوم الغرامشي، ومرادفا للسّلطة لدى فوكو ووعاء للفكر وعنصرا أساسا تتحدّد به الهويّة والكينونة والخصوصيّة؛ هو أنّ المؤلّف لا يملك غير ذكريات محزنة أو سيّئة عن بوسعادة أو بعض أهلها، وقد هجرها إلى العاصمة ثم بلدانا أخرى خارج الوطن، واستقرّ بسلوفينيا، وما يزال مغتربا إلى يومنا هذا، إمّا أنّه فقد أهمّ ملامح ثقافة المنطقة لكثرة الثّقافات التي خالطها، أو أنّه تعمّد عدم استعمالها، لما يرتبط بها من ألم نفسي في الوعي أو اللّاوعي. كما قد يؤوّل الأمر بأنّه لا يكنّ حبّا لمدينته، إذ لم يذكرها بخير إطلاقا، وكلّ الأوصاف الواردة على لسان السّارد جوزيف رينشار، من قبيل التّبشيع والتّقبيح، والتّنفير، والتّحقير، ومعلوم أنّ لا علاقة للسّارد ببناء النّص، وإنّما هو المؤلّف يتحدّث على لسانه، وحتّى السّارد الممثّل للآخر الغربي ما بعد الاستعماري، رغم كونه شخصيّة فرنسيّة مثقّفة؛ رسّام، يطالع الأدب وأخبار الفن والثّقافة، اشتغل على تحقيق مخطوط إيزابيل.. إلّا أنّه لم يتلفّظ بكلمة واحدة بلغته الأم؛ الفرنسيّة، ولا حتّى لفظة من قبيل اللّازمة الكلاميّة، وبالمقابل يجيد اللّغة الشّعبية، ويحفظ أمثالها ومسكوكاتها اللّفظيّة أكثر من عجوز بوسعاديّة، ما يمكن تفسيره أنّ المؤلّف من شدّة انشغاله بصورنة الآخر الغربي منحَه الكثير من ﴿إنـــيّـــــتـــه وهويّته﴾، بل جوهرها وهي ﴿اللّغة﴾، وهو في غمرة تلبّس شخصيّة الآخر والاجتهاد في الرؤية بعينه والتّعبير عن خوالجه، ظهرت الأنا متماهية مع الآخر، وحليفة له ضدّ ﴿الأنا﴾، وهي ظاهرة

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

تتكرّر لدى كثير من الكتّاب العرب، تشرّبوا ما سوّقته إلينا الكتابات الثّقافيّة الغربيّة إلى جانب الإعلام من ثنائيّة شرق/ غرب، التي تقوم على نظريّة تفوق الآخر الغربي، ومنه ثنائيّة مركز/ هامش، وغدت إطارا للحوار الأعرج مع الآخر والتّواصل أحاديّ الاتّجاه معه، وبذلك أعيد إنتاج وتسويق تلك الصّورة النّمطيّة للأنا العربيّة والآخر الغربي في الإبداع العربي, وكان من ثمارها المرّة، أن انشق عن الخطاب الأدبي العربي خطاب هجين الهويّة، تخلّق خارج رحم الأنا قريبا من الآخر/ الغرب، متّصلا بها انتماء لا أصالة، هجنة ثقافيّة وليدة ثقافة هيمنة الآخر/ المركز/ الغرب، وتفوّقه.

**الخاتمة:**

في الأخير؛ وختاما لهذه القراءة المقتضبة لبعض مواطن تجليّات أشكال العلاقة بين الأنا والآخر، من خلال المرجعيّات الثّقافيّة في أربعون عاما في انتظار إيزابيل يمكن أن نخلص إلى النّقاط الآتية:

جاءت صورة علاقة الأنا بدينها وذاتها وثقافتها المتجذّرة في النّسيج المجتمعي، صورة مشوّشة منقوصة ضبابيّة، تعكس القطيعة والانفصال والتّبرّم تشويهًا لصورة المسلم، عبر تشويه صورة الشاب المسلم عبد الكريم السّلفي، وبن علي الإبّاضي، والحاج علي المواظب على فريضة الحج والصّلاة، والشّيخة لالا فاطمة شيخة الزّاوية، على غرار ما قام به التنويريّون الغربيّون، أوّل حروبهم كانت على أهل

الدّين، بمهاجمة ممثّلي الكنيسة، وتشويه صورهم وتقبيحهم وتحقيرهم وتسفيههم.

الأنا متنكّرة للذّات والهويّة والوطن والقيم والمبادئ، ولا يختلف عنها الآخر رغم تمسّكه بفوقيّته.

المتحدّث بالضّمير ﴿أنا﴾ هو الأخر الغربي، الممثَّل في شخصيّة جوزيف رينشار، أمّا الأنا العربيّ فحضوره طارئ، غير مكتمل الصّورة، ينقل الآخر صوته مقتضبا مختزلا في كلمات محدودة، يشير إلى تعالي ذات الآخر، وامتلاكه اللّغة، والصّوت السّردي من العنوان حتّى آخر سطر، يحتكر الحضور الكامل حركة وصوتا وشعورا وحلما وتذكّرا، وليس فقط في عمليّة السّرد، بل تعدّاه إلى الحضور الاجتماعي وامتلاكه للغة المجتمع البوسعادي، وعاميّته، وعاداته وتقاليده ودينه، حتّى أنّه يحفظ من أمثالهم الشّعبيّة ويوظّف مسكوكاتهم اللّفظيّة ما يعدم الفرق بينه وبين من حوله، بل يرفعه عليهم، لافتقادهم للّغة، والرّمز الوحيد للمستقبل والأمل والحلم في النّص هو الطّفل؛ لكنّه جاء في صورة العبد الأسود، والمعدم، وشبه الأبكم، يتسوّل الخبز اليابس؛ أمل الأنا العربيّ فتيّ ضعيف، لا يملك ما يقيم به صلبه، فهو محكوم عليه بالموت، وفي أحسن الأحوال بالتّبعيّة المطلقة للأخر الغربي. امتلك الآخر المختلف هويّة اللّغة وحقّ الكلام بينما حرمت منها الأنا العربي، مكتوم صوته، مغيّب حضوره الكامل، لا يحضره إلّا لدعم موقف السّارد أو استشهاد عليه. وامتلاكه -السّارد- للغة الأنا المحيطة به لم يكن تلقائيا مع مضيّ الوقت

والاختلاط بها، أو فعلا تطوّعيّا من الأنا تجاه الآخر، بل كان بحرص شديد من الآخر على امتلاكها، ولا فضل للأنا عليه، لأنّه دفع مقابلها: ﴿تعلّمت لغة العرب.. أكتبها قليلا وأتكلّمها كثيرا، وأسبّ وأشتم بها بإتقان.. بذلت جهدا أكبر.. تعلّمت العربيّة على يد الشّيخ البردعي.. علمني.. بصبر وحنكة حروف الهجاء والأسماء والأفعال، وكنت أدفع له نهاية كلّ شهر ورقة 20 فرنكا، يفرح بها: بارك اللّه فيك يا سي جوزيف وكثر من أمثالك، كان يقول. ــ البركة فيك يا سيدي. العلم ما يتوزن بالمال﴾ (خطيبي 2016، 27)، اللّغة علم، أي معرفة والمعرفة مرادف للسّلطة، وامتلاك السّلطة لا يمكن تقديره بمال، كان يدفع له بسخاء، فيفرح الشّيخ؛ يدفع له بحجم لهفته إلى امتلاك السّلطة والهيمنة عليه.

الأنا في كلّ أشكالها وصيغها تجسّد التّابع، خاضعة وتابعة للآخر، تسهر على راحته وسعادته، متمسّكة بخدمة السّيد، والبقاء إلى جانبه؛ فسليمان رافق جوزيف إلى فرنسا، والهادي الرّسام يتحرّق رغبة للعودة إلى روسيا، وصاحب المقهى يحن إلى مهجره فرنسا، وابنة شيخ الزّاوية الرّيحانيّة تعمل في القنصليّة في فرنسا، ولالّة تركيّة سلّمت فلذات كبدها السّت لأزواج فرنسيّين عُقّر.

علاقة الأنا المرأة بالآخر الرّجل، علاقة حقد وتخاصم، لا يتنازل الرّجل عن مركزيّته في المجتمع، أمّا المرأة فلا تتعدّى حدود الهامش، وينظر إليها وسيلة للمتعة وأداة للخدمة.

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

المنصت لنبرة النّص يستشعره نصّا نسويّا ثائرا على الأعراف والتّقاليد والدّين والمجتمع والذّكوريّة، صوت أنا المرأة غائبة نبرته حاضرة في صوت السّارد والأصوات التي نقلها، جسّدته اللّفظة العاميّة ﴿العميرة﴾؛ كلمة السّر بين السّارد وصديقه. فكسر طابو الدّين والسّياسة، والجنس على نحو لافت يثير شعورا بأنّنا أمام كتابة نسويّة متمرّدة، وليس القصد هو رفض موضوع الجنس، وإنّما كونه أقحم إقحاما على الحبكة دون أن تكون له وظيفة تخدم الموضوع، فجاءت الحبكة لامنطقيّة ومهلهلة رغم أهميّة الموضوع وتيماته، تعكس انهيار القيم وسقوط الأخلاق والتّنازل عن الإنسانيّة لعصر ما بعد الحداثة، فجاء النّص بلا جوهر يمثّل روحه، فضلا عن البناء المتناقض للشّخصيّات وتحديد مصائرها وتشويش عمليّة التّلقّي.

إذا كانت الغاية من الأدب الارتقاء بالإنسان وتعزيز إنسانيّته، فإنّ نصّ ﴿أربعون عاما في انتظار إيزابيل﴾ يتكشّف عن عوالم سوداويّة، متشائمة ظلاميّة، تحلّل حقبة زمنيّة من تاريخ الجزائر(انظر التّعليق رقم 6)، والتي سمّاها ب﴿صعود الأسياد الجدد﴾ بموازاتها بفترة زمنية من الاستعمار الفرنسي(انظر التّعليق رقم 7) من خلال شخصيّات تمثّل الأنا منحلّة أخلاقيّا، وغير فاعلة اجتماعيّا، فاقدة الشّعور بالهويّة والانتماء إلى وطنها. تعاني خللا جنسيّا، واضطرابا نفسيّا، وتشوّها اجتماعيّا، علاقاتها بذاتها هشّة وغير سويّة، وبالآخر في كلّ أشكاله تجسّد مفهوم

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

الدّيستوبيّا والخراب والفساد، لم يكتف العمل بنقل واقع العلاقات، وإنّما عمل على تأزيمها وتعقيدها ومنحها أبعاد أكثر عنفا وقتامة.

في النّصّ رؤية واحدة، وصوت واحد، تجسّدها رؤية السّارد وصوته، رؤية لا تخرج عن تلك الصّورة النّمطيّة التي نجح المستشرق الغربي في صنعها عن العربي، كونه ضعيفا ومستكينا ومطيعا ومستسلما وهمجيّ، لا يصلح إلّا أن يكون تابعا، لكنّه منبهر بروحانيّاته وشعبيّاته، وبالمقابل الآخر سيّد بتفوّقه الفكري والحضاري والمادّي والتّاريخي ﴿أنا عسكري والعسكري ما يرجعش للوراء. قلت له﴾ (خطيبي 2016، 23)، فلا رابط للجزائر بفرنسا غير تاريخها الاستعماري المستمر، باستعمال وسائل ألين وأكثر رخاوة.

لم يعد الأدب بوصفه تفكيرا وواقعة ثقافيّة ينطلق من الواقع ويعكسه وفق النّظريّة الماركسيّة، وإنّما بات السّواد الأعظم للكتّاب يكتبون وفق النّظريّات النّقديّة والمناهج الأكثر رواجا وحضورا في السّاحة النّقديّة كموضوع ثنائيّة الآنا والآخر، لا سيّما البحوث والرّسائل الأكاديميّة، وهو ما يبدو على رواية ﴿أربعون عاما في انتظار إيزابيل/ 2016م﴾ التي تنتمي إلى الكتابة المعاصرة، وتستجيب لسوق النّقد، مقابل التّزكية الأكاديميّة (انظر التّعليق رقم 8)، بتجاوز الثّالوث المحرّم في إطار المتح من التّاريخ قديمه ومعاصره، فالقديم هو الإطار الزّمني الذي عاشت فيه إيزابيل وإيتيان دينيه، والمعاصر هو الإطار الذي جرت فيه أحداث القصّة مطلع التّسعينات، وهي نزعة معاصرة في الكتابة ترفع

نسبة حظوظ النّصّ من الدّرس الأكاديمي، حتّى أنّ النّصّ بين أيدينا مغرق بمصطلحات ثقافية حدّ المبّالغة، تظهره حاملا لأنساق ثقافيّة، غير أنّ النّسق الثّقافي ليس ما يمكن قراءته على السّطح، وإنّما ما يكمن في عمق معناه، لا يتأتّى للدّارس إلّا بعد طول تأمّل وتأويل، فمصطلحات النّقد الثّقافي مذكورة في النّص صراحة؛ إذ إستدعى التاريخ ووظّف مصطلح الكتابة عن الآخرية والرّد بالكتابة وصناعة الشرق/ الاستشراق، والذّكوريّة، واشتغل على مفهوم نبذ المركزية (التّاريخ، الإسلام وسياسة الدّولة/ السّلطة) واحتفى بالهامش، من خلال شخصيّات هامشيّة ومنبوذة، وعن الجنوب الجزائري/ الصّحراء، والكولونياليّة وما بعد الكولونياليّة، إلى جانب نزعته التّجريبيّة المعاصرة، التي باتت تعني كسر الطّابوهات، إذ اجتهد البناء السّردي في خرق المحظور الدّيني بوصف التّيار الإسلامي وبناء الأنا الممثّلة له، سواء إسلام المساجد عبر شخصيّة الشّاب عبد الكريم طيطي من أتباع حزب العدالة/ الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ، أو إسلام الزّوايا، عبر شخصيّة شيخ الزّاوية الرّيحانيّة/ الرّحمانيّة وابنته العاملة في القنصليّة في حاضر السّرد، وشخصيّة لالّا فاطمة/ زينب شيخة الزّاوية قديما، أو الإسلام الطّائفي عبر شخصيّة الشّاب الإبّاضي المتمرّد الماجن. كما خرق المحظور الجنسي في بناء الشّخصيّات، إمّا أنّها شاذّة، أو أنّها شبقيّة، أو مكبوتة. أمّا المحظور السّياسي فبالتركيز على أحداث 1988م، وأحداث مطلع التّسعينات، ونبش المسكون عنه في التّاريخ، وكشفه -تخييليّا- من خلال شخصيّة إيزابيل ولالا

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية
ISSN: 2170-1822, EISSN: 2600-6189
مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023
العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.
ص.ص 82 - 151.

فاطمة/ زينب، وخضرة ودينيه، وإثارة قضية المثليّة في المجتمعات المحافظة، وهي موضوعات للتّجريب الرّوائي وسمات مطلوبة في ساحة النّقد والجوائز الأدبيّة.

اللّغة بوصفها تمثيل للذّات، تعكس مدى حضورها وأصالتها، وهي في هذا المقام لغة سطحيّة ومباشرة تقصي فاعليّة القراءة وتلغي القارئ، ذلك أنّ المؤلّف يكتب بخلفيّته كإعلامي، يحدّد الزمن والمكان والحدث بلغة مباشرة بعيدا عن الشّعريّة، تهدف إلى الإعلام والإخبار دون الاتّصال، بل وأحيانا تكشف عن الأحداث والنّهاية قبل العرض، كما هو حال العناوين الصّحفيّة، لذا كلّ ما تجلّى منه على أنّه نسق مضمر، هو فكرة تنتمي إلى البنية السّطحيّة.

**التّعليقات:**

1 ـ جوزيف؛ النّبي يوسف (س)، سليمان؛ النّبيّ سليمان (س)، بن علي؛ نسل النّبي ﷺ من عليّ وفاطمة، وعبد الكريم وعبد الهادي؛ اسمان يحملان اسمين من أسماء اللّه الحسنى، كما أنّهما من الأسماء المفضّلة في الإسلام للقول النّبويّ ﴿خير الأسماء، ما عبّد وما حمّد﴾، والسّعديّة؛ حليمة مرضعة الرّسول ﷺ.

2ـ ذكر المؤلّف نصف الحقيقة، وغطّى على نصفها الآخر بالتّخييل، وهو ما يراه المؤلّف نفسه تزييفا للتّاريخ، حسب تصريحاته في أكثر من موضع )كحواره مع ﴿الغد الجزائري﴾، لم تبق إلاّ ندرة من المثقّفين تقاوم بصدر عار، 22نوفمبر 2022)، وكان الأجدر الاجتهاد في التّحرّي عن الحقيقة بموجب موقعه كإعلاميّ، يمارس مهنة الصّحافة،وتقديمها للقارئ، لأنّ خلاف ذلك تزييف للتّاريخ، وإن كانت الرّواية ليست من المصادر المعتمدة في كتابة التّاريخ، لكنّ ضوابطها تظلّ قائمة، فما يقدّم من معلومات للقارئ هي معلومات تخصّ تاريخ منطقة بعينها، يتلقّاها على أنّها معرفة

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

ISSN: 2170-1822,
EISSN: 2600-6189

مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية

مجلد: 14 عدد 2 ديسمبر 2023

ص.ص 82 - 151.

العنوان: ديستوبيا العلاقات من خلال المرجعيات الثقافية لرواية أربعون عاماً في انتظار إيزابيل مقاربة تأويلية.

وليس خيالا. فبعض المراجع التّاريخيّة فضلا عن المعتقد الشّائع بين أهالي منطقة أولاد نائل وبوسعادة بجاسوسيّة دينيه، وأنّه قد أوكلت له مهمّة الإساءة لأولاد نائل، لأنّها قبيلة وقفت حصنا منيعا ضدّ الاستعمار الفرنسي، وعرشان على الأقل من أعراش القبيلة شاركا في المقاومة الشّعبيّة، ما دفع بفرنسا إلى الحقد على أولاد نائل – قبيلة أولاد نائل لم تنصهر في الثّقافة الدّخيلة رغم كلّ المحاولات-. ولأنّ إتيان دينيه أدرك أنّ حرمة العربيّ والمسلم على الخصوص في حرمة نسائه؛ عمد إلى تشويهها من خلال لوحات خليعة ومسيئة، وقد بالغ قصدا في الحديث عن خضرة راقصة أولاد نائل، لكنّه بعد أن أسلم وحجّ تحوّل إلى النّقيض، وأصبح يرسم ما يمثّل حقيقة ثقافة وقبيلة أولاد نائل وبوسعادة وصحراء الجزائر عموما، وهو ما يذكره مفصّلا كتاب : آلفونس إتيان دينيه للطّيّب بودربالة (المركز الثّقافي للكتاب، الدّار البيضاء/ المغرب، بيروت/ لبنان، ط1، 2019م)، لكنّ سؤالا يطرح نفسه؛ لماذا لم يقدّم إيتيان دينيه بعد تحوّله عن دينه، وشهادة الجميع له بصدق اسلامه وتخلّصه ممّا يشوبه اعتذار لأولاد نائل عمّا كان منه في حقّهم؟، بل إنّه لم يتلف لوحاته المسيئة، واستمرّت رحلتها في أوروبا تصنع شهرته وتقدّم الصّورة النّمطيّة للمرأة الشّرقيّة، وهو ما يبعث على الشّكّ في أمر إسلامه من جهة، ومن جهة أخرى؛ هو أمر يبعث على الشّك بدوره في إسلام إيزابيل إيبرهارت، وحقيقة وجودها في الجزائر، ويدعم فكرة كونها جاسوسا، الفكرة التي يؤمن بها أهالي المنطقة التي عاشت بها أيضا، وهي فكرة لا تخدم الهدف من كتابة السّارد لسيرته وموازاتها بسيرة إيزابيل، والدّفاع عنها وإنصافها ممّا لاكته الألسنة حولها.

3ـ يبدو في هذا الموضع أنّ المؤلّف أقحم التّشبيه إقحاما، لأنّه لا وجود لصفة الغنج والاحتشام في شخصيّة إيزابيل، فهو يصفها على طول مسار السّرد بالنّحيفة والمسترجلة والمجنونة، فضلا عن كون الدّلالتين لا تلتقيان، فالغنج هو تدلّل المرأة على زوجها بملاحة كأنّها تخالفه، وليس بخلاف، وغنج المرأة أصواتها وحركتها التي

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz

تزيدها ملاحة (معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، ص1645)، أمّا الاحتشام فهو الاستحياء والانقباض والتّعفّف اللّغة العربيّة المعاصرة، ص502)، فالتّشبيه في هذا المقام من قبيل الحشو، بغضّ النّظر عن صحّة التّشبيه لغويّا، فلا إيزابيل بالمرأة الغنجة ولا لالا سعديّة؛ كيف لامرأة تتحوّل بسهولة من امرأة إلى رجل، ومن رجل إلى امرأة أن توصف الغنج والاحتشام؟!

4ـ وقد أسقط السّارد نسبة رواية خضرة للمؤلّف الثّاني سليمان بن ابراهيم، ويخبر بأنّه سيكتب سيرته مع صديقه سليمان ليردّ على دينيه، فرواية خضرة شراكة بين دينيه وسليمان، والسّيرة الذّاتيّة التّاريخيّة التّخييليّة شراكة بين رينشار وصديقه سليمان، وكما كان أسلوب دينيه في الرّواية بمقابلة كلّ فصل بلوحة بمضمونه، فعل السّارد بمخطوط إيزابيل؛ حوّله إلى فصول، ورسم لكلّ فصل لوحة، وبلغ ثلاث عشرة لوحة، ويعتزم رسم اثنتين أخيرتين، ثمّ يدفنها (سعيد خطيبي، أربعون عاما في انتظار إيزابيل، ص11، ص157)، فعليّا لوحاته أقلّ بلوحة من لوحات دينيه في الرّواية؛ 13/ 14، لكنّه سيجعلها خمس عشرة لوحة استشرافا، انغلق السّرد ولم يتحقّق، لذا يبقى دفاعه لإنصاف خضرة تنقصه لوحة، كما أنّه قابل شهرة دينيه في الماضي بلوحات خضرة، بشهرته في المستقبل البعيد بعد دفنها، ثم اكتشاف الأجيال اللّاحقة قيمتها، فإذا كان دينيه قد شهّر بخضرة، واشتهر بها، فإنّ السّارد من ورائه خطيبي شهّر بإيزابيل، واشتهر بها، واعتزم –السّارد– وأد لوحاتها/ عريّها، ولم يفعل، وعليه فإنّ تصريحه بأن الهدف من العمل هو إنصاف نساء أولاد نايل كناية عن النّقيض، ودعم لدينيه، لأنّه لم يتمّ اللّوحتين، ولم يدفن لوحاته.

5 ـ لالة زينب القاسميّة هي المرأة الوحيدة في تاريخ الجزائري التي تولّت مشيخة زاوية بحجم ومكانة زاوية الهامل، حظيت بتزكية رهيبة من أتباع الطّريقة الرّحمانيّة، وقد عرف عنها التّقى والورع والعفاف والزّهد والصّدقة، والشّجاعة، إذ تصدّت للقائد الفرنسي «كروشار»الذي خطّط لتولية المشيخة لابن عمّها، لأنّه أكثر ليونة

وانصياعا لفرنسا، هزمت كروشار، ورفضت الزّواج من ابن عمّها، حفاظا على المسار الثّوري والثّقافي المقاوم الذي رسمه مؤسّسها للزّاوية، وماتت عذراء. تلقّب بعذراء بوسعادة، وزينب أم الصّحراء، فقد حرصت على تعميم تعليم النّساء علوم الدّين وأصول اللّغة العربيّة، وتزعّمت المشهد الاجتماعي والدّيني، وتلقّب أيضا بامرأة بألف رجل، لتصدّيها لفرنسا، ولولاها لما كان للزّواية استمرار إلى يوم النّاس هذا، ودورها الفعّال في المقاومة الثّقافيّة، والمحافظة على مخطوطات قيّمة للزّاوية من الحرق والإتلاف والسّرقة. توفّيت بداية الخمسينات من عمرها، بداء السّل ومضاعفات القلب سنة 1904م)

6ـ فترة صعود الإسلاميّين بفوز الجبهة الإسلاميّة للإنقاذ، واغتيال الرّئيس محمّد بوضياف شتاء 1992م.

7 ـ الفترة التي عرفت فيها الجزائر وفود المستشرقين إليها، واستقرار بعضهم بها، كإيتيان دينيه وإيزابيل إيبرهارت.

8 ـ بلغ عدد المقالات المسجّلة فقط في منصّة المجلّات العلميّة الجزائريّة asjp 792مقالا يتضمّن كلمتي ﴿الأنا والآخر﴾( https://www.asjp.cerist.dz) دون احتساب مذكّرات الليّسانس والماستر/ الماجستير والأطروحات، فضلا عن مواضيع التّجريب والاستشراق وغيرها من موضوعات الدّرس الثّقافي.

## المراجع:

ـ إبراهيم فتحي، (1986)، **معجم المصطلحات الأدبيّة**، سفاقس: التعاضديّة العمّاليّة.

ـ الطّيّب بودربالة،(2019)، **آلفونس إتيان دينيه**، الدّار البيضاء/ بيروت: المركز الثّقافي للكتاب.

ـ جميل صليبا، (1987)، **المعجم الفلسفي**، بيروت، لبنان: دار الكتاب اللّبناني، ج2..

ـ زياد أبو لبن، (2006)، **عزّالدين المناصرة؛ غابات الألوان والأصوات**، عمان: دار اليازوري العلميّة.

ـ سعد البازغي وميجان الرويلي، (2002)، **دليل النّاقد الأدبي**، الدار البيضاء: المركز الثّقافي العربي.

ـ سعيد خطيبي، (2016)، **أربعون عاما في انتظار إيزابيل**، بيروت/ الجزائر: منشورات ضفاف/ الاختلاف.

ـ طه وادي، (1995)، « المذاهب الفكريّة والفن في الرّواية التّاريخيّة». الفيصل، دار الفيصل الثّقافيّة، العدد 229، ص26. ص29.

ـ عطيّة، عاطف، (2015)، « الثّقافة الشّعبيّة بين المادّي واللّامادّي ». **الثّقافة الشّعبيّة**، الثّقافة الشّعبيّة للدّراسات والبحوث والنّشر، المجلّد الثّامن العدد31، ص14. ص25.

ـ محمّد السّعيد زعلول، (2006)، **الموسوعة الكبرى لأطراف الحديث النّبويّ الشّريف**، بيروت: دار الكتب العلميّة، ج41.

ـ يمنى العيد، (1999)، **تقنيّات السّرد الرّوائي في ضوء المنهج البنيوي**، بيروت: دار الفرابي.
اللّبناني، ط1، ،

ـ الموقع الإلكتروني لزاوية الهامل: شيوخ زاوية الهامل
http://el-hamel.atspace.com/zaouia/cheikhs.HTM

ـ الموقع الإلكتروني للمنصّة الجزائريّة للمجلّات العلميّة asjp:
https://www.asjp.cerist.dz

-Jean François Lyotard, (1988) .**Le Postmoderne expliqué aux enfants : Correspondance 1982-1985**, Paris: Galilée.

المؤلف المراسل: سعاد صابيه
Sabia.souad@cu.tipaza.dz